الإنتقاص في شعر صعاليك العصر الجاهلي

وسام حاتم زويد ضياء غني العبودي
جامعة سومر / كلية التربية الاساسية جامعة ذي قار كلية التربية للعلوم الانسانية
IRAKaljameiy72@gmail.com, IRAK thyambc@yahoo.com

ملخص البحث:
يمثل الشعر العربي قبل الإسلام ميدانا لدراسة ظواهر مختلفة ، فقد كان المعبر الصادق عن الحياة العربية في هذا العصر، بكل نشاطاته وفعاليته الإنسانية ، ولعل ظاهرة الانتقاص من الظواهر التي عكسها شعر الصعاليك ، وقد ساعدت الظروف لاجتماعية والاقتصادية والبيئية على ظهورها ، لتعبر عن ثقافة مجتمع حينذاك ،لذا جاء هذا البحث ليتناول هذه الظاهرة في مبحثين الأول (الانتقاص من الآخر) والثاني (الانتقاص من الذات).

Abstract:
Arab poetry before Islam represents a field for the study of different phenomena. It was the true gateway to Arab life in this era, with all its activities and human effectiveness, and perhaps the phenomenon of diminishing the phenomena reflected by the hair of the Sa'alik. The social, economic and environmental conditions helped to emerge. , So this research came to address this phenomenon in the first two parts (the reduction of the other) and the second (self-deprecation).

تمهيد

الانتقاص لغة :

جاء الانتقاص في كتاب العين : ((النقصُ : الخُسْرانُ في الحظ ، والنقصان مصدرٌ ، ويكون قدر الشيء الذاهب من المنقوص ، والنقيصة : الوقيعة في الناس ، وانتقصت حقه إذا نقصته مرة بعد مرةٍ))[1] .

أما في لسان العرب ((انتقصه واستنقصه : نسب إليه النقصان ، وفلان ينتقصُ فلاناً أي يقع فيه ويثْلِبُه ، والنقِيصةُ العيب ، والوقيعة في الناس ، والفعل الانتقاص))[2] .

وورد في المعجم الوسيط ((نَقَصَ الشيء - نقصاً ونُقْصَاناً : خَسَّ وقَلَّ ، ويقال نقص عقلُه أو دينُه : ضَعُف ، تنقص الشيء : أخذ منه قليلاً وعابه ، اسْتَنْقَصَ الشيءَ : عَدَّه ناقصاً ، أو نسبَ إليه النُّقْصَان ، النُّقْصانُ : المِقْدَارُ الذَّاهب من المنقوص ، النقيصة : الوقيعةُ أو الطعن في الناس والخصلة الدَّنيئة))[3] .

أما في الاصطلاح : فإني لم أعثر على تعريف لهذا المصطلح ولكن من خلال معناه اللغوي استطيع أن أعرفه بأنه سلوك تسلطي يحاول البعض من خلاله الحط من قيمة الآخرين والتقليل من شأنهم سواء على مستوى الذات أو الجماعة ، وهو من الصفات الذميمة في بني البشر .

وبما أن الإنسان بطبيعته له مشاعر واحاسيس وكرامة فإنه لا يرضى بانتقاصه أو التقليل من شأنه ، والانتقاص من الآخرين يولد الحقد والكراهية والانتقام والرد بالمثل بين الناس ، ومن يتصف بحب انتقاص الآخرين فهو مريض ولديه نقص ، ونجده دائماً يلوم نفسه على أي عمل يفعله فيحاول تغطية عجزه بالانتقاص من الآخرين .

العلاقة بين الذات والآخر :

هنالك علاقة جدلية بين الذات والآخر وهي علاقة متجذرة ، تغوص في أعماق التاريخ ، وترقى إلى أوليات الوجود البشري ، يوم أدرك الإنسان - كونه كائناً عاقلاً - من يشاركه الحياة فعرف الشبيه والمغاير[4] .

ثمة جدل قائم ومستمر في حياة البشر بين الأنا وذاتها من جهة ، وبينها وبين الآخر من جهة أخرى ، أما الآخر فيتموضع في ذوات أُخر إنسية كانت أم غيرها ، وقد يتحقق في العالم الطبيعي بمفهومه

المادي الصرف ، بما يشتمل عليه من كائنات ظاهرة ، ثم إن الآخر بدوره - حال تعينه في ذوات إنسانية أخرى - لا يعدو أن يكون أنا أخرى تروم انجاز مهام متماثلة[5] .

والذات مفهوم قديم ترجع أصوله إلى (هوميروس) ، الذي ميز بين الجسم الإنساني المادي وبين الوظيفة غير المادية التي أطلق عليها فيما بعد النفس أو الروح[6] .

فمفهوم الذات هو ((هو نسق تصوري تطوره الكائنات البشرية ، أفراداً أكانت أم جماعات ، وتتبناه وتنسبه إلى نفسها))[7] . وهناك علاقة ملازمة بين الذات والآخر فـ((للآخر حضور دائم عند الذات في جميع مراحل الحياة ، وكما يؤكد علماء النفس ، فإن حضور الآخر ليس شيئاً عارضاً ، إلا أن الآخر في الوقت نفسه ، ليس شيئاً ثابتاً باستمرار ، بل تتغير خصائصه بتغير الظروف والمواقع ، فكما يكون الآخر فرداً ، يكون في أحيان أخرى جماعة ، وكما يكون الآخر معروفاً للذات وقريباً منها ، فإنه يكون في أحيان أخرى في أماكن بعيدة وحتى في أزمنة مختلفة))[8] .

أما رؤية علماء الاجتماع للذات ، فقد ذهب العالم (تشارلز كولي) إلى أن الذات هي مركز الشخصية[9].والعلاقة بين الذات أو الأنا والآخر هي الخيط الناسج للنص الإبداعي ، إذا كانت جدليتهما كثيراً ما تبدو مصطنعة في الخطاب الفكري ، فإن الابداع يتيح لهما مقومات البناء والصياغة ما يوسع إمكانات تصورها والتعبير عنها[10] .فالذات تسعى إلى إدراك الآخر وإقامة علاقات معه سواء أكان الآخر فرداً أم جماعة ، لتحقيق وجودها وإدراك ماهيتها وهي نواة الشخصية ومركزها .

أي أن العلاقة بين الذات والآخر تستند إلى مدى الأثر الذي يتركه الآخر في الذات وطبيعة مواجهة تلك الذات له ، أي ردة فعلها تجاه ذلك الآخر ومدى وعيها به بحسب التوافق أو التباين معه ، أي بحسب التوافق ما يشكله ذلك الآخر من قيمة في ذات الشاعر وبذلك فإن ((نفي الآخر هو بتر للذات))[11] في الوقت نفسه .

إذ ليس هناك ذات من دون آخر ، ولا آخر من دون ذات ، فكلاهما في حاجة عضوية ووجودية إلى الآخر ، لا انفكاك عنها وهذه الحاجة الماسة إلى مقابل أو مثيل أو عدوّ أو مشايع هي الأسّ أو الأصل الذي تنبني عليه العلاقات سواء أكانت صراعات أو ائتلافات[12] .ثم إن الآخر أساس في العملية الإبداعية لأنه حفز الأنا على اخراج مقولتها من وضع الكمون ، واستنفار قدراتها على المواجهة[13] . فـ((الآخر ليس بالضرورة هو البعيد جغرافياً أو صاحب العداء التاريخي أو التنافس الدائم ، إذ يمكن للذات أن تنقسم على نفسها ويُحارب بعضها البعض الآخر))[14] .

أي تخلق آخر من ذلك الانقسام فتحاور ذلك الآخر الذي تجزأ من داخل الذات ، فأصبح آخراً مستقلاً شاخصاً أمام الذات ، لذلك تعدد صور الانتقاص من الذات والآخر داخل نصوص الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، وبذلك نجد العلاقة القائمة بين الذات والآخر علاقة ترابطية قائمة على أساس وجود كل طرف منهما ، إذ ليس هناك ذات بمعزل عن الآخر ولا آخر بمعزل عن الذات في إطار النص الذي يظهر ملامح وجودها تتخلل ألفاظه ومعانيه .

المبحث الأول : الانتقاص من الآخر

لقد تنوعت صور الانتقاص من الآخر في شعر صعاليك العصر الجاهلي وتعددت مضامينه ، ذلك أن مصطلح (الآخر) مصطلح ثقافي ذو أبعاد متشعبة وعميقة لها علاقة بعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة وغيرها من العلوم ، ويمكن اكتشاف صورة الآخر لدى أي مجتمع بطرائق شتى ، فيمكننا مثلاً تحليل النظام القانوني لمجتمع ما لنكتشف من هو الآخر بالنسبة لهذا المجتمع ، إذ أن القانون بصرامته ودقته لابد أن يضع حدوداً بين من يعدهم منه ومن يعدهم ليسوا منه ، ويكن من اكتشاف صورة الآخر عن طريق التحليل الاجتماعي الذي يرصد تصرفات المجتمع وعاداته وتقاليده وهذه العادات هي التي تحدد من يدخل في دائرة الـ (نحن) ومن يدخل في دائرة (الآخر) وأيضاً يمكن اكتشاف صورة الآخر عن طريق التحليل النصي ، فالنص هو حامل للأنساق الثقافية التي تحكم المجتمع[15] ، والنص هو معمل لتمثيل الآخر وتصويره إذ ((لا تخلوا ثقافة من الثقافات من تمثيل للذات أو للآخر فالتمثيل هو الذي يعطي للجماعة صورة ما عن نفسها وعن الآخر))[16] .

إذن فالآخر هو ((الكائن المختلف عن الذات وهو مفهوم نسبي ومتحرك ، ذلك أن الآخر لا يتحدد إلا بالقياس إلى نقطة مركزية هي الذات ، وهو النقطة المركزية ليست ثابتة بصورة مطلقة ، فقد يتحدد الآخر بالقياس إلي كفرد ، أو إلى جماعة معينة قد تكون داخلية كالنساء وبالقياس إلى الرجال والفقراء بالقياس إلى الأغنياء))[17] .

إذ الآخر يمكن أن يكون إنسان أو غيره ، ضمن دائرة يضعها كل من له شأن به في زاوية من الزوايا التي يكون فيها الآخر مما يدل على اتساع تلك الدائرة التي تحوي الآخر ، لذلك عمد هذا البحث إلى إبراز الآخر الإنسان وغيره ، مما احتوته نصوص شعراء الصعاليك .

ولعل الحديث عن الصعلوك الخامل هو أحد مظاهر الانتقاص من الآخر ، فهم يحتقرون تلك الطائفة الخاملة من الصعاليك الذين قبلوا وضعهم الاجتماعي الذليل وقنعوا به فعاشوا على هامش

المجتمع ينتظرون من فضلات الأغنياء ما يسدون به رمقهم ويعدون ذلك الغنى كل الغنى ، ولا يفكرون إلا في أنفسهم يلتمسون لها ذلك الزاد القليل الذليل أما التفكير في أن يكون لهم من الثراء ما يطمعون به غيرهم ويسجلون به لأنفسهم حديثاً خالداً تتناقله الأجيال من بعدهم فهذا أبعد الأشياء عن محيط نفوسهم الضعيفة التي تحيا حياة خاملة متكاسلة أقصى ما فيها من عمل خدمة النساء (الارستقراطيات) إذا احتجن إليهم[18] ، وهذا ما نجده واضحاً في قول عروة بن الورد من [الطويل]:

لَحَى اللهُ صُعْلوكاً إذا جنّ لَيْلُهُ مضى في المَشَاشي ، آلفاً كُلَّ مجْزِرِ
يعدّ الغِنى من نَفْسِه كُلَّ لَيْلَةٍ أصابَ قِراها مِنْ صَديقٍ مُيَسَّرِ
ينَامُ عِشاءً ثُمَّ يُصبِحُ ناعِساً يَحُتُّ الحَصَى عَنْ جَنْبِهِ المُتَعَفِّرِ
قليلُ التماسِ الزادِ إلا لنفسه إذا هو أمسى كالعريشِ المُجَوَّرِ
يُعِينُ نِساءَ الحَيِّ ما يَسْتَعِنَّه وَيُمْسِي طَلِيْحاً كالبعيرِ المُحَسَّرِ[19]

وبهذا تظهر لنا دقة (عروة) وبراعته الفنية واللغوية في رسم صورة الصعلوك الخامل ، الذي لا يخرج عن عالم الثبات والسكون والخمول والكسل معرضاً نفسه للذل والمهانة الاجتماعية ، والاعتماد على الآخرين الميسورين ، وملء بطنه الذي يعده غنى بل هو كل ما يتمناه ويبتغيه ، ولا يهمه عياله وأقرباءه ، إذ ليس له هدف ولا يقوم بأية فاعلية اجتماعية فهو كالخيمة العديمة الفائدة المتهاوية على أصحابها ، فالشاعر يلعن ذلك الصعلوك الخامل لاسيما إذا أسدل عليه الليل ستاره ومضى وفي المشاش يجمع العظام يألف كل مجزر فهو (كالكلب) مشبهاً إياه بهذه الصورة الدنيئة التي تحمل في دلالتها العميقة معنى الانتقاص والسخرية والاستهزاء ، أو المبالغة السافرة ، ثم يخفي عليه صورة أخرى تحمل في دلالتها الكسل وهي حينما يستيقظ من نومه ينفض عن جسمه التراب المتعفر ، وبعد هذا كله يصوّره بصورة حيوانية أخرى فهو يعين نساء الحي ويقوم بتلبية أمورهن حتى يمسي في آخر النهار متعباً مثقلاً بالجهد فهو (كالبعير المحسّ) .

وبهذا فإن صورة الصعلوك السالب تعطي انطباعاً سالباً عن انساق الصعلكة عندما يتصف الصعلوك بالعجز والضعف والخوف ، بينما الصعلوك العامل في الحياة هو الذي يصنع الحياة في رأي (عروة) ويحقق جمالها وضياءها .وهكذا تتنامى هذه الصورة ويكمل بعضها الآخر من أجل أن تستحضر الصورة الكلية في ذهن المتلقي للصعلوك الخامل .

وكذلك الحال عند السليك وانطلاقاً من ذلك فهو يخاطب المرأة التي تريد منه القعود عن الغزو والعيش عيشة هادئة في كنف البيت بجانبها ، فيلجأ إلى تسفيه رأيها لأنها تريده أن يكون نؤوماً ثم يقارن بين الصعلوك النؤوم والصعلوك الضروب كما في قوله :

ألا عَتَبَتْ عليّ فصارمتني وأعجبها ذوو اللّمِمِ الطـــــــــــــــوالِ
فإني يا أبنةَ الأقوامِ أُربي على فِعل الوضيّ مِنَ الرِّجالِ
فلا تصلي بصعلوك نؤوم إذا أمسى يُعدُّ من العيـــــــــــــــالِ
إذا أضحى تفَقَّد منكبيه وأبصرَ لحمهُ حَذَرَ الهُـــــــــــــــزالِ
ولكن كلُّ صعلوكٍ ضروب بنصل السيفِ هامات الرجالِ[20]

لقد اتخذ الشاعر من هذه المعاتبة والمقاطعة (التي تمثل الجانب السلبي) منطلقاً منه للفخر بنفسه من خلال عقد الموازنة بين الصعلوك القوي والنشيط والشجاع والصعلوك الخامل الضعيف ، وكما يتضح فإن المقارنة هذه ترخي طموحه وكبرياءه وغايته التي يهدف إليها ويسعى . وكما يتضح لنا في البيت الأول دقة الشاعر الفنية ومقدرته الإبداعية حين عمد إلى ذكر أحد الطرفين وهو النظام والترتيب من خلال ذكره (أعجبها ذوو اللمم الطوال) ، وترك الطرف الآخر يتبادر إلى ذهن المتلقي من خلال فهمه وتحليله للسياق الشعري الذي يتضمنه البيت الأول ، فالمرأة قاطعته وعاتبته وكان لهذا تأثير فعال ومباشر في تشكيل البنية الدرامية ، والشاعر يؤكد أن المرأة لم تكتف بالعتاب فحسب ، وإنما فضلت رجلاً آخر عليه فاستفزت بذلك رجولته مما جعل شكواه من الفقر تكتسب ألماً مضاعفاً فهو لا يملك مثل الآخرين إغراءً للمرأة وقوة جذب تتمثل في المال أو الوسامة .وقد بدأت المحاورة بجملة فعلية تدل على الحركة والتغيير ، ثم عبرت عن إعجابها بشخص آخر يتميز بسمات ، حسنة الشكل والهيأة والملامح والمرأة بموقفها وإعجابها هذا ، إنما تعبر عن رأي المجتمع السائد أو النظام الاجتماعي .ثم يرد عليها من خلال هذه الحوارية مؤكداً في البيت الثاني أنه يربأ بنفسه عن القيام بالأعمال الوضيعة التي يقوم بها الصعلوك الخامل ، وهو يبرهن لها بأنه يتميز بأفعال تميزه من الأبيض من الرجال ، وهنا نلمس مدى تأثير اللون (سواد البشرة) وكونه من الاغربة فضلاً عن ضعف الحال في المجتمع الذي يميز بين هاتين الفئتين بروح عنصرية واضحة .

ثم يعقد الموازنة والمقارنة في البيتين الثالث والرابع بين الصعلوكين (الصعلوك الخامل والضعيف/الصعلوك النشيط القوي) ثم يفخر بنفسه مؤكداً أنه ليس من الذين يخلدون إلى الراحة بل

هو من الذين يتسمون بصفات القوة والشجاعة في المحن والمهالك ، لتكف عن مقاطعته وينال إعجابها ، وبأفعاله هذه يتميز وينتصر على عقدة لونه الأسود وعلى كونه من الاغربة وهو ينتصر على المجتمع ونظرته من خلال (المرأة ومعاتبتها ومقاطعتها) .كما نلمس في البيتين المذكورين لجوء الشاعر الصعلوك النشيط إلى التعريف بالصعلوك الخامل وإلى السخرية والتهكم والانتقاص منه ، فهو ينهاها من إقامة علاقة معه لأنه خامل وهو في المساء مجرد صبي لا يعتمد عليه (العيال) أما في البيت الرابع فتبلغ السخرية أوجها حينما يقوم الشاعر برسم صورة ساخرة لهذا الصعلوك - الصبي الذي إذا أضحى تفقد منكبيه من شدة الخوف والجبن ، وتمعن ونظر إلى لحمه خوفاً من الهزال والضعف ، وكما يبدو فإن الشاعر يتلذذ بسخريته هذه ويجد فيها متنفساً تعويضياً لما يعانيه من تميز عرقي داخل مجتمعه ، وهو في هذا الانتقاص اللاذع يبدو كمن ينتقم لنفسه من خلال رسم صورة تجسم الصفات المهينة التي تحط من شأن خصمه ثم يدعوها في البيت الخامس إلى أن تقيم العلاقة والوصل مع الصعلوك الشجاع الذي يضرب هامات الرجال بنصل سيفه ، إشارة واضحة لنفسه كونه يمتلك هذه الخصال الحميدة فهو الأجدر بمحبتها ووصلها .

ومن هنا نستنتج أن موقف المرأة وحوارها ومعاتبتها ومقاطعتها له تمثل الأرضية التي أنطلق منها لتحديد قيمه وأفكاره ورؤاه وبيان قوته وإثبات وجوده وكيانه رداً على نظرة المجتمع والنظام الاجتماعي.

ويستهل عمرو بن براقة قصيدته الميميه ، بحديث بينه وبين صاحبته ، تنصحه بأن لا يعرض نفسه للمخاطر ، وأن يجعل ليله سباتاً ليستريح فيه ، ولكنه يعجب من هذه النصيحة فكيف ينام الليل من وهب حياته للبطولة والمغامرة ؟ ألم تعلم بأنه أحد أفراد طائفة الصعاليك الذين لا ينامون من الليل إلا قليلا ؟ وهل تريد منه أن يكون كأولئك الخليين المسالمين الذين ينامون الليل كله[21]؟

تقولُ سُليمـــــــــــــــى لا تَعرّضْ لتَلْفَةٍ وليلك عن ليل الصعاليك نائـــــمُ
وكيف ينامُ الليلَ من جُـــــــــــــــل ماله حُسامٌ كلون الملح أبيضُ صارم
غَموضٌ إذا عَض الكريهة لم يَدعْ له طَعماً طَوْعُ اليمين مُـــــــــــــــلازم
ألم تَعلمي أن الصعاليك نَوْمهـــــــــــــــم قليلٌ إذا نام الخليّ المســـــــــــــــالمُ[22]

ومن خلال هذه الابيات يتضح أن الصعاليك حريصون كل الحرص على أن يفرق المجتمع بين هاتين الطائفتين وكم يتمنون لو عرف لكل طائفة قيمتها ، فاحتقر الأولى ، وقَدَر الأخرى حق قدرها ،

وهذا (السليك) يوضح ذلك الفرق لصاحبته حتى تكون على بينة من أمرها فلا تخلط بينه وبين صعاليك الطائفة الأولى الخاملة الضعيفة ، لعلها إن أدركت هذا الفرق كفت عن معاتبته وهجره ونال إعجابها .

وفي الاتجاه ذاته حركت (الشنفرى) فرديتهُ الناقمة إلى أن يخاطب المرأة بخطاب استعلائي يُظْهر إلى قدرته في السيطرة عليها ، وفي الوقت نفسه جعلها تميز بينه وبين من هو قاعدٌ إذ يقول :

لا تحسبيني مِثلَ مَنْ هو قاعدٌ على عُثَّةٍ أو واثقٌ بكسادِ
إذا انفلتت مِنّي جَوادٌ كريمةٌ وثَبْتُ فَلَمْ أُخطِئ عِنانَ جَوادي[23]

ولكن (أبا خراش) يختلف هنا عن زملائه شعراء المراقب ، بأنه لم يكن وحيداً فوق مرقبته ، وإنما كان معه صاحب له ، وهو معنيٌ بصاحبه أكثر من عنايته بنفسه ، فهو صاحب حذر قوي النفس لم يرضَ لها أن يكون عبداً راعياً وإنما آثر أن يكون صعلوكاً عاملاً ، يتربص فوق المراقب في سواد الليل رافضاً تلك الراحة البغيضة التي ينعم بها الضعفاء الذين لا خير فيهم ، ممن يؤثرون النوم والدفء على العمل والكفاح ، كما في قوله :

بصاحب لا تنال الدهر غرته إذا افتلى الهدف القِنُّ المعازيبُ
بعثته بسواد الليل يرقبني اذ آثر النوم والدفء والمناجيب[24]

وفي نص آخر ينتقص (تأبط شراً) من مهنة الرعي ويعدها مهنة تتصف بالضعف والاستقرار ، فهي مهنة هادئة لا تعرف الجرأة والمغامرة التي أعتاد عليها الصعاليك كما في قوله من [البسيط] :

لَكنَّما عِوَلي إنْ كُنْتُ ذا عِوَلٍ على بَصِيرٍ بِكَسْبِ الحَمْدِ سَبَّاقِ
سَبَّاقِ غاياتِ مَجْدٍ في عشيرتِهِ مُرجِّعِ الصَّوْتِ هَدَّاً بين أرْفاقِ
عاري الظَّنابيبِ مُمْتَدٍّ نَواشِرُهُ مِدْلاجِ أَدْهَمَ واهي الماءِ غَسَّاقِ
حَمَّالِ أَلْوِيَةٍ شَهَّادِ أَنْدِيَةٍ قَوَّالِ مُحْكَمَةٍ جَوَّابِ آفاقِ
فذاك هَمِّي وغزوي أَسْتَغِيثُ به إذا اسْتَغَثْتُ بضافي الرأس نَفَّاقِ
كالحِقْفِ حَدَّأَهُ النَّامُونَ قلْتُ لهُ ذو ثَلَّثِينِ وذُو بَهْمٍ وأَرْبَاقِ[25]

ومن يتأمل هذه الأبيات بعمق يجد أنها تعبر عن شخصيتين اجتماعيتين مختلفتين وكل شخصية لها سماتها الخاصة وعالمها المتميز عن الآخر وهي (شخيصة الصعلوك - شخصية الراعي) ، فهو في أبياته هذه يوضح للمتلقي سمات الصعلوك المفتخر به ، والمتميز عن غيره والذي يمكن مصادقته والتعويل والاعتماد

عليه في الملمات (لكنما عولي) . فهو بصير سباق في كسب المجد والعلا وسباق إلى مكارم الأخلاق ، كل همه المغامرة والابتعاد عن المكان المستقر ، والتقرب والتفاعل مع عالم الطبيعة المليء بالمفاجآت والمغامرات عالم مأهول بالغرابة والقسوة والخشونة والذي يثبت من خلاله القوة والجرأة والثبات لنفسه .عكس عالم الراعي المتسم بالثبات والسكون والاستقرار ، لا يبذل مجهوداً كثيراً في عمله سوى الصياح خلف الأغنام وهو كثيف الشعر ، معتمداً على ما تمنحه الطبيعة من عشب وماء وفيرين . وهو بموقفه هذا عبر عن رأيه بالقيم الاجتماعية السائدة وعن نظرة الصعاليك إلى مهنة الرعي فهو ينفر منها ويشعر أنها غير مناسبة له لذا فهو لا يفتخر إلا بمغامراته التي تتميز بالقوة والجرأة والإقدام والبطولة .إلا أن رفضه القاطع لمهنة الرعي يؤكد أنه أنحاز إلى حريته في التصرف وإلى اختياره الذي يعيش من أجله رافضاً مهنة الرعي لأنها تشكل قيداً على روحه وقيمه ورؤيته الخاصة وموقفه من الحياة عموماً .

وبهذا استطاع أن يعطي للمتلقي صورة واضحة الملامح لسمات الصعلوك القوي ليثبت وجوده وكيانه في مجتمع رفض وجوده ، كما بينت أبيات القصيدة التي أوردناها والتي ركزت على السمات الأساسية للشخصية الصعلوكية التي يعدها الشاعر الأنموذج والمثال الذي ينبغي أن يكون المرء متطابقاً معه ، أما في الشطر الثاني من البيت الآتي فينتقص الشاعر ويسخر من شخصية الراعي النقيضة لهذا الأنموذج .

فذاك هَمّي وغزوي أَسْتَغِيثُ به إذا اسْتَغَثْتُ بضافي الرأس نَعَّاقِ

وتوكيداً للشطر الثاني تظهر براعة الشاعر الفنية في البيت الذي بعده في رسم صورة تشبيهية حسية رائعة حينما يتحدث الشاعر عن شخصية الراعي بسخرية واستهزاء ويصف شعره الكثيف والكثير وعدم عنايته به حتى أصبح صلباً قوياً كقف الرمل الذي اجتمع وكثر تراكمه مستوحياً مفرداتها من البيئة الطبيعية المحيطة به ومن عناصر قوتهم النفسية التي أنفتهم من القيام بتلك الأعمال التي يصح أن نطلق عليها (الأعمال الفرعية في المجتمع القبلي) ، وهي تلك الأعمال التي يقوم بها العبيد وأشباههم ، ويأنف السادة من القيام بها ، بل ينتقصون من شأن كل من يقوم بها ، كخدمة الأبل والقيام بأمرها .

ويصرح (تأبط شراً) بترفعه على هذه الأعمال الفرعية بأنه يأنف من القيام بها[26]

ولستُ بِتِرْعِىً طويل عَشَاؤُهُ يؤَنِّفها مستأنَفَ النبت مُبْهِلِ[27]

ويصرح مرة أخرى بأنه يخجل من الوقوف وسط قطعان الغنم ، وقد حمل في يده عصا طويلة حتى أشبه ذلك الطائر المائي الطويل المنقار وقد وقف في مستنقع من مستنقعات المياه الضحلة[28] كقوله :

ولست براعي ثلَّة قام وَسطها طويل العصَا غُرْنيَق ضَحل مُرَسَّلِ[29]

فهم لا يرتضون لأنفسهم إلا تلك الأعمال الأساسية التي يقوم عليها المجتمع البدوي كالغزو والإغارة ، وبهذا يمكن القول أن الصعاليك رفضوا هذه المهنة بوصفها مهنة غير لائقة بموقف الصعاليك وحياتهم ، ولا يقدم عليها إلا الإنسان الهامشي والتابع ، أما ظاهرة (الأغربة) فيمكن تلمسها في الشعر الصعلوكي وبيان نظرة المجتمع (للأغربة) القائمة على التميز العنصري ، فضلاً عن الانتقاص والسخرية من شخصياتهم ، وتمثل لنا أبيات (تأبط شراً) صورة حية عن ذلك ، ومثالاً آخر للنظام الاجتماعي ، يعكس رؤية أفراد المجتمع ونظرتهم إلى الصعاليك (الأغربة) من الناحية الاجتماعية ، وهي في نفس الوقت تعكس طبيعة المخاطر التي يواجهها الصعلوك ، وتبين بعض السمات التي تميز شخصيته كالشجاعة والإقدام وقلة النوم وغير ذلك لكن النظام الاجتماعي برغم معرفته الدقيقة بطبيعة شخصية الصعلوك القائمة على الشجاعة إلا أنه يتخذ موقفاً قاهراً منه ويحذر النساء من مناكحته والارتباط به كما في قوله من [الطويل] :

وقالُـــــــــوا لها لا تنكحيه فإنَّـــــــهُ لأولِ نصلٍ أنْ يُلاقي مجمعا
فلمْ ترَ من رأيٍ فتيلاً وحاذرتْ تأيُّمَها من لابسِ اللَّيلِ أروعا
قليـــــــــل غِرارِ النَّومِ أكبر همِّهِ دمُ الثأرِ أو يلغي كميّاً مُقنعّاً
يُماصِعهُ كـــــــــلّ يُشجع قومـــــــهُ وما ضرْبُهُ هامَ العِدى ليُشجَّعَا[30]

وعند تأملنا هذه الأبيات نجد صوتين واضحين هما صوت المجتمع (النظام الاجتماعي "وقالوا لها" وصوت الصعلوك) . فمضمون الابيات تفصح وتشير إلى الانتقاص من شخصية (تأبط شراً) مجسدين ذلك بالنصيحة التي قدمها المجتمع إلى المرأة العبسية - وهي بألا تتزوجه لأن هامته مهيأة لأول سهم يلقاها - والتي كان (تأبط) على اتفاق معها ووعدت مناكحته فلما جاءها تمنعت ولم تبر بوعودها وهكذا تغير موقف الفتاة بسبب قول بعض الناس إذا قيل لها ((ما تصنعين برجل يقتل عنك قريباً ، له في كل حي جناية ، وعنده لكل إنسان طائلة فتبقين أيماً)) [31]

وتتجلى براعة الشاعر في افتتاح أبياته بجملة فعلية تدل على تغير الموقف والحركة وعدم الثبات على رأي واحد ، أي أن الفتاة كانت موافقة على الأمر ثم تغير موقفها وقطعت العلاقة معه . كما تظهر دقة الشاعر الفنية في توظيفه في البيت الأول بقوله (وقالوا لها لا تنكحيه) موظفاً مفردة تدل دلالة واضحة للملامسة وبهذا فالصورة اللمسية ((تحمل في شعر الصعاليك علاقات ودلالات حسية تدل على المباشرة من خلال تردد الألفاظ الحسية المباشرة))[32] . ثم نلمس براعتها في التعبير عن رأي المجتمع والناس بصيغة المجموع (وقالوا لها) موظفاً الضمير(واو الجماعة) ولم يعبر عن الرفض بصيغة المفرد أي أن الكل متفق على قطع العلاقة وعدم الاستمرار . وهكذا نجد أن شخصية المرأة تخضع لقيم اجتماعية بصورة لا شعورية ونتقيد بها تلقائياً .ثم يبدأ في البيت الثاني صوت الصعلوك ليرد على المجتمع الذي يرفض ويسخر من حياة الصعلكة وعلى المرأة وينتقدها ويسفه رأيها لأنه لا يلتمس فيه شيء من الصحة ، بل إن الشاعر يرى أن المرأة - الحبيبة - فاقدة الاستقلالية الشخصية ولو كانت تملك رأياً مستقلاً وراجحاً ما انساقت لأقاويل الناس ولأرتبطت به من دون التخوف من تأيمها .ثم تتعمق الدلالة حينما يفجر الشاعر طاقاته التخييلية لينتج لنا صورة وكناية فنية رائعة ومدهشة حينما يصور ذاته وكأنه (لابس الليل أروعا) أي أنه من ركاب الليل لا يفارقه حتى وكأن الليل هو لباس أعُد له خصيصاً ، والشاعر يريد من ذلك تبيان شجاعته والخصائص النفسية والمعنوية التي يتمتع بها والتي تميزه عن باقي أفراد المجتمع .وفي البيت الرابع يؤكد الشاعر من خلال إنتاجه أحد المعاني المهمة أن القتال معه يكسب عدوه شرف المنازلة وسوف يذيع صيته بين القبائل وذلك لأنه رجل باسل وشجاع ومن يقاتله سينسب قومه إليه الشجاعة والفروسية ثم يؤكد الشاعر في عجز البيت أن ضربه هامات الأعداء وقتله إياهم لا يهدف منه التبجح بشجاعته وهي مسألة لا جدال فيها بالنسبة له ، بل إنه طبع وعادة تجري في دمائه وعروقه وهكذا ((كان للقيم دور كبير في تحقيق الضبط الاجتماعي فهي تؤثر في الناس لكي يجعلوا سلوكهم مطابقاً للقواعد الأخلاقية وتمنحهم شعوراً بالرضا والحصول على تقدير الآخرين لهم بسبب هذا الالتزام السلوكي))[33] وهو ما أنعكس على موقف المرأة والتزامها بهذه القيم .

أما الشاعر الصعلوك فقد تمرد على هذه المنظومة القيمية التي كانت سائدة في المجتمع القبلي حينذاك وهو يرى أن من حقه الزواج بحبيبته وأن منعه هو شكل من أشكال الاضطهاد والتمييز الاجتماعي .

وتطالعنا أبيات (الشنفرى الازدي) وقصته مع المرأة السلامية أبنة الرجل الذي تبنّاه من بني سلامان عندما أراد أن يواصلها (أن يقبلها) فلطمت وجهه ، ، فأقسم أن ينتقم منها ومن أهلها لاستبعادهم إياه[34] ، فكان هذا الحدث ، أو هذا الموقف سبباً في ولادة هذا النص وإخراجه بهذه الصيغة ، كما في قوله من [الطويل] :

ألا هل أتـــى فتيان قومي جماعة بما لطمت كف الفتاة هجينها
ولو علمت قعسوس أنساب والدي ووالدها ظلـــــــت تقاصر دونها
أليس أبي خيـــــــر الأواسي وغيرها وأمي أبنة الخيرين لو تعلمينها
إذا ما أروم الـــــــود بيني وبينهـــــــا يؤم بياض الوجه مني يمينها[35]

فالفتاة بموقفها هذا إنما عبرت عن سلوكها الشخصي المتنامي مع رأي نظامها الاجتماعي (القبلي) مما يدل على مدى تأثير القيم الاجتماعية في نفس الفتاة وفي سلوكها اتجاه الشاعر لكونه من اغربة العرب (هجينها) لذا ((فالمثل العليا والمبادئ القيمية هي عوامل فاعلة لا يمكن فصلها عن مجريات واقع حياة الإنسان الذي يتعذر فهمه بدونها))[36] .وبهذا فقد أستطاع الشاعر أن يرسم لنا صورة واقعية حية تدل دلالة قوية عميقة على الشعور بالظلم والانتقاص من قبل المجتمع ولا سيما نظرة بني سلامان إليه . إن إرادة الشاعر القوية والكبرياء والإباء الذي يتمتع به مكنه من توظيف موهبته الشعرية في انتقاله سريعة من حالة القهر والشعور بالظلم إلى حالة الفخر بكل عفوية من خلال مفرداته وألفاظه .

فكان الفخر رد فعل قوي على موقف المرأة السلبي والمهين ، وقد حاول الشاعر من خلاله أن يبرهن للطرف الآخر حقيقة مكانة والده بين أبناء القبائل ولم يكتف الشاعر بالفخر والإشادة بالمكانة الاجتماعية التي يتمتع بها والده ، بل لجأ إلى أسلوب آخر أستهدف منه إشعار الطرف الآخر بأنه أقل مكانة وسمواً منه - بمعنى الانتقاص من شأنها - وذلك من خلال إجراء المقارنة والمفاضلة التمييزية بين والده ووالدها (تقاصر دونها) ، ثم يواصل الشاعر افتخاره بأنه ينتسب إلى عائلة كريمة عريقة الأصل ، وهو بهذا يشبع حاجة نفسية تعويضية لديه قائمة على الاستعلاء ووضع الآخر في مكانةهي دون مكانته . كما تظهر في هذا النص (الجنسية المقموعة)عند الشاعر في البيت الأخير ، فعلى الرغم من كون هذه الجنسية مقموعة بعدم رغبة المرأة (ضربته عندما أراد تقبيلها) فإن لون الشاعر يصبح أبيض ولا أظن

أن هذا اللفظ منحصر المعنى في شرفه وأصالة نسبه فحسب[37] ، بل هو مكتنز بالدلالة على أنه يقابل وجه الفتاة ، في حين يقابل يمين الفتاة النزوع الجنسي المقموع لدى الشاعر .

والمجتمع لا يرغب في هؤلاء الأبناء الذين ورثوا الإهانة والاحتقار عن أمهاتهم وما لصق بهم من وضاعة المنزلة الاجتماعية التي كانت عليها الأمة ، لذا فالمرأة ترفض الاقتران بهذا الرجل وتعبير عن رفض المجتمع ونبذه له[38] كما في قول (السليك) :

ونبئتها حـــــرمت قومها لتنكح من معشر آخرين
فإن البعيد ليخطيبنـــــــــــه تلاد القريب من العالمينا
ولسن ينازلن يوم الوغى ولا يتصدين للـــــــــــدراعينا
فطوفي لتختلطي مثلنا وأقسم بالله لا تفعلينـــــــــا[39]

إن سخرية المجتمع ونقمته على ابن الأمة قد ولدت سخرية مضادة ونقمة تجاه المرأة .

ومن صور الانتقاص من الآخر (السبي) فقد كان السبي في العصر الجاهلي هدفاً وغاية عند القبائل العربية ، تحرص عليه لما له من أثر بالغ على العدو ، حيث أن سبي النساء أشد على العربي من وقع السهام وضرب السيوف ، لذلك عانت المرأة العربية بشكل شديد في العصر الجاهلي من تلك الظاهرة ، وذلك لكون العرب كانوا يحرصون عليه في حروبهم الكثيرة لأن السبي يوقع في العدو ما لا توقعه السيوف البائرة والنار الحارقة ، فالسبي فيه ما فيه من الإذلال والقهر والإهانة لصاحبها .لقد كان العربي شغوفاً بالسبي يفخر به في كل مكان ويعير به عدوه وينتقص منه في كل مكان ، ومهما يكن فقد ظلت المرأة العربية تكره السبي لما فيه من ذل وهوان لها ولجميع أفراد قبيلتها[40] .أن سبي النساء يورث العربي ذلاً وهواناً لا يفارقه أبد الدهر لهذا فكر العربي في التخلص من هذا الأمر قبل وقوعه ، أما إذا عجز العربي عن حماية نسائه فإنه يكون عرضة للهجاء من أعدائه .

إن من يمعن النظر في شعر الصعاليك يجد بعض الإشارات إلى السبي حيث أن الصعاليك اعتزوا بحماية نسائهم والذود عنهن ، كما افتخروا بمقدرتهم على سبي نساء غيرهم ، ووصفوا السبايا بأوصاف متعددة متشابهة لأوصاف غيرهم من الشعراء ، حيث أن سبي نساء العدو دليل واضح على قوة السابي وسطوته وظهوره على عدوه وقهره له .

يروى أن بني عامر أخذوا امرأة من بني عبس يقال لها (أسماء) فما لبثت عندهم إلا يوماً حتى أستنقذها قومها فبلغ (عروة) أن (عامر بن الطفيل) قد أفتخر بذلك الأمر وذكر أخذه إياها فرد

(عروة) عليهم يعيرهم بأخذه (ليلى شعواء السلالية) ذاكراً بعض مفاتنها في صورة ذليلة مهانة وذلك إيلاماً لأهلها وقهراً لهم إذ يقول :

إن تأخذوا أسماء موقف ساعةٍ فأخذ ليلى وهي عذراء أعجبُ
لبسنا زماناً حسنها وشبابَهـــــــا وردت إلى شعواء والرأس أشيبُ
كأخذنا حسناء كرهاً ودمعها غداة اللوى مغصوبة يتصيبُ[41]

إن (عروة) يفخر أنه سبى (ليلى بنت شعواء) وهي فتاة عذراء جميلة وبقيت عنده زماناً ولم ترجع إلى أهلها إلا بعد أن شابَ شعرها وتقدم بها العمر محاولاً من ذلك إيلام أعداءه وإذلالهم وقهرهم ، وهذا يدل على منعة الشاعر وقوته وفيه تعبير أيضاً عن الانتقاص من أعدائه من خلال بيان ضعفهم وعجزهم عن استنقاذ سباياهم .

أما نص (قيس بن الحدادية) فينطلق من واقع يصف في معركة أغار فيها مع قومه على (هوزان) ففتك بهم وسبى نسائهم وصادر أموالهم وقتل رجالاً من بني قشير (أبا زيد وعروة وعامراً ومُروحاً) فحالة النصر هذه كانت الدافع القوي عند الشاعر للتعبير عن فخره ، والانتقاص من الآخر كما في قوله

نحنُ جلبنا الخيل قُياً بطونهـــــــا تراها إلى الداعي المثوب جنحاً
بكل خزاعي إذا الحرب شمرت تسربـــــــل فيهـــــــا برده وتوشحـــــــاً
قتلنا أبـا زيدٍ وزيـــــــداً وعامرا وعـــــــروة أقْصدْنا بهـــــــا ومُرَوَّحا
وأبنا بإبلِ القومِ تُحدى ونسوةٍ يبكّين شِلْـــــــواً أو أسيراً مُجرَّحـــــا
غداة سقينا أرضهم من دمائِهم أبنا بأدمٍ كُنّ بالأمسِ وضَّحا[42]

وعند قراءة هذه الأبيات نرى أن (قيساً) كان حريصاً على تأكيد تفاصيل المعركة من أجل إبراز حالة النصر الواضحة بدلالاتها وكيفية تمكنه هو وقبيلته من الفتك بأبناء القبيلة الأخرى وهو يؤكد ذلك بدقة وملموسية حينما يشير إلى أسمائهم ثم يفتخر بقوة طعنهم للعدو التي لا تخيب ولا تخطئ .ولم يكتف الشاعر بتوظيف هذه الصور فحسب بل وظّف مؤثرات أخرى ودلالات تدل على حالة الهزيمة وتجسدها من خلال الصور والأفعال المنسجمة مع أجواء المعركة وتسلسل أحداثها ومدى الخسائر التي تكبدها العدو ، ومن أهم المؤثرات المادية الملموسة ، عودتهم بأسلاب أعدائهم من الإبل ، ثم بكاء النسوة على رجالهم القتلى الذين تطايرت أشلائهم أو الذين وقعوا في الأسر وأصيبوا بجراحات .ثم يصور

الشاعر قوة فعلهم البطولي حينما يؤكد أنهم سقوا أرض أعدائهم بدمائهم ، وهذا يعني أنهم حققوا نصرهم في عقر دار أعدائهم وكان هذا النصر في الوقت نفسه هزيمة شنعاء لهم على أرضهم ، وقد عادوا بالسبايا وهن في حالة يرثى لها لشدة ما قاسين من ذل وما رأين من أهوال ومخاوف ، ومما يثبت رسوخ حالة الهزيمة .ومن خلال هذه الأبيات وسياقها الشعري ندرك صورة الانتقاص من الآخر التي رسمها الشاعر من خلال تفاعل الألفاظ التي تحمل دلالات نفسية ومعنوية متعددة تحط من شأن ومنزلة الآخر .

كما أفتخر (حاجز الأزدي) في معرض رده على (عزيل الخشعمي) الذي عير (حاجزاً) بطعنة طعنها اياه (عمرو بن معد يكرب) في إحدى غارات (خشعم) على بني (سلامات) فقال (حاجزٌ) مذكراً أعداءه بأيام كثيرة لهم هزموا أعدائهم وسبوا نسائهم وجاءوا بهن يقودونهن صاغرات ذليلات وهذا الوصف فيه من التشفي وإيلام العدو ما فيه إذ يقول :

إن تذكـــروا يـــوم القـــريّ فإنـــه بَـــوآءٌ بأيـــامٍ كثـــر عديدُهـــــــا
فنحـــنُ أبحنا بالشخيصـةِ واهناً جهـــاراً فجئنا بالنســـاء نقودها[43]

وفي هذين البيتين تتضح المبالغة في إهانة السبايا وامتهانهن ومعاملتهن معاملة البهائم مما يدل على قسوة السابي وشدته محاولاً الانتقام من أهلهن ، وشفاءً لما في صدره من غيظ وحقد دفين.

في الاتجاه ذاته يفتخر (مالك بن حريم) الهمداني بانتصاره على أعدائه ، وتركه قتلاهم في أرض المعركة تحوم الطير فوقهم ، وعيرهم بأنهم ولّوا هاربين تاركين خلفهم لنسائهم كأنهن الظباء يقعن سبايا في يد عدوهم إذ يقول:

ورهـــــط المازنـــــي وأبي كُعيْـــــبٍ تَرَكْناهُـــم بَاقِيـــةِ الرَّمـادِ
فولَّـــــوا عنـــــد ذاك وأمكنـــونـــا من البيض الأوانسِ والخِـــــرادِ
غنيمـــة جيشنا مـــن كلِّ حـــــيٍ مُعَكَّـــــرَةُ الطرائـــــفِ والتِّـــلادِ
ولُعسٌ كالظباء مُـــــرَدَّ فـــــاتٍ كـــأنَّ عُيونَهـا واهي المـواد[44]

وفي الاتجاه ذاته يصف لنا (تأبط شراً) غارته على (الأزد) التي تكللت بنصره وهزيمة (الأزد) الواضحة الدلالة في أبياته الآتية :

تُرجيَّ نساءُ الأزدِ طلعةَ ثابتٍ
أسيراً ، ولمْ يدرينَ كيفَ حوِيلي

فإنَّ الأُلى أو صيتمٌ بينَ هاربٍ
طريـــــــدٍ ومسفوح الدّمـــــــاءِ قتيلِ
فقلّدتُ سَوَّارَ بن عمرو بنِ مَالِكٍ
بأسْمَـــــــرَ حَشْرِ القُذّتينِ طميـــــــلُ
نَخَرَّ كـــــــأنَّ الفيلَ ألقى جِرانَـــــــهُ
عليه ، فتىً شهْم الفؤادِ أسيل[45]

فالشاعر يفتتح أبيات قصيدته ناقلاً رأي نساء (الأزد) اللواتي يتمنين أن يؤسر (ثابت) لكثرة ما ابتلوا بغزواته التي سبّبت لهم الانكسارات والهزائم لكنه يسخر منهنّ لأنهن لا يعرفن مقدار خبرته وقوته القتالية وبعد نظره في معرفة الأمور التي تساعده في عدم الوقوع بالأسر ، لهذا سوف يُخيّب رجائهم بما كانوا يأملون ويفكرون فيه ، فقد خيّب مخططات رجال (الأزد) حينما كمنوا له وطاردوه وأرادوا قتله وكانت النتيجة معروفة إذ تمكن من مجابهتهم وتحقيق النصر عليهم ، فمنهم من فرّ هارباً ومنهم من قتل معبّراً عن شعوره بالنصر والزهو في الصورة التي رسمها ونقل عبرها انفعالاته .

إذن فالشاعر يصور انتصاراته من ناحية ، وهو في الوقت نفسه يجسد هزيمة (الأزد) محاولاً الانتقاص والتقليل من شأنهم بهذه الألفاظ الواضحة الدلالة التي تعكس حالتهم المزرية .

وغزت (عبس) (طي) بعد قتل (عنترة بن شداد) فسبوا نساءً خارجات من الجبل فتبعتهم (طي) فقاتلتهم (عبس) حتى ردوهم إلى جبلهم وجاؤوا بالنساء إلى (بني عبس) فقال (عروة) مفتخراً ومتشفياً وساخراً :

أبلغ لديـــــــهك عامراً إن لقيتهـــــــا
فقد بلغت دارُ الحفـــــــــــــاظ قرارها
رحلنا من الأجبال أجبال طي
نسوق النســـــــاء عُوذها وعشارها
ترى كل بيضاء العوارض طفلةٍ
تغري إذا شال السماك صدارها
وقد علمت أن انقلاب رحلها
إذا تركت من آخر الليل دارها[46]

إن (عروة) في هذه الأبيات يسخر وينتقص من قبيلة (طي) كونها لم تستطع إنقاذ نسائها مجسداً ذلك بأنهم ساقوا نساء (طي) سوقاً مهيناً كسوق الحيوانات وقَوْدُهُنّ قودها، وكان ليس في السَّبي في حد ذاته من الإذلال وكسر الروح المعنوية ما يكفي ويذكر أن فيهن الحوامل والمرضعات وصغار السن اللائي يئسن من العودة لديارهن .

إن هذه الصورة المؤلمة التي ترسم بوضوح امتهان المرأة وإذلالها ومعاملتها بقسوة وخشونة على الرغم من رقتها وضعفها ، كما توضح بجلاء الجو السائد في العصر الجاهلي ، والذي يحاول فيه الشاعر إيلام أعداءه بكل طريقة ممكنة ، لذلك يلجأ إلى مثل هذه الأوصاف بقصد الانتقاص من أعداءه .

وأفتخر أيضاً (حاجز الأزدي) بسبيه نساء (بني هلال) وذلك أن (ضمرة بن ماعز) سيد (بني هلال) قتل حُجاجاً من (الأزد) مروا بـ (بني هلال بن عامر بن صعصعة) فبلغ ذلك حاجزاً فجمع جمعاً من بني قومه وأغر على (بني هلال) فقتل وسبى منهم وفي ذلك يخاطب (ضمرة بن ماعز) قائلاً :

يا ضمـــرُ هـــل نلناكـــم بدمائنـا أم هـــل حَذُونا لفلكـــم بمثـــالِ
تبكـــي لقتلـــى فقيـــم قُتلـــوا فاليوم تبكـــي صادقاً لهـــلالِ
ولقـــد شفانـــي أن رأيتُ نسائكـــم يبكين مُردفـــةً على الأكفـال
يا ضمرُ إن الحرب أضحت بيننا لقحت على الدكاء بعدَ حيال[47]

إن (حاجزاً) لم يشف غليله ويذهب ما في صدره ورؤية القتلى من أعدائه ولكن الذي شفاه وأذهب همه وأطفأ نار صدره المتأججة على أعدائه هو رؤية النساء الباكيات وقد أُردفت على مؤخرات الرحل ، وهذا يظهر بجلاء حرص العربي على سبي النساء لأن سبيهن يقهر عدوه ويُلحقه مذلة وهوان يلازمانه طيلة حياته .

وهناك صورة للسبية وهي تؤخذ مكرهة ودمعها يتصبب من عينها على ما آل إليه حالها كما في قول (عروة) :

كمأخذ حسناء كرهاً ودمعها غداة اللوى مغصوبة يتصبَّب[48]

أما صورة الفقير فهي أيضاً محل انتقاص وازدراء من قبل المجتمع كونه عاش في مجتمع متعسف يحتقر الفقير لأنه فقير ، ويرفع الغني لا لشيء وإنما لغناه ، وهذا ما عبر عنه (عروة بن الورد) حين أدرك أن لا حياة للفقير في مجتمع يبجل الأغنياء ويتجاوز عن أخطائهم ويحتقر الفقير المعدم لا لشيء إلا لفقره ، لذا يطلب (عروة) من زوجته أن تتركه لحال سبيله كي يحصل على المال والثروة ،

ذلك أن ثقافة المجتمع السائدة حينذاك تجعل الناس تنظر إلى الفقير على أنه شر الناس فهو يقابل بكل ازدراء واحتقار من زوجته إذ يقول من [الوافر] :

دَعِيني للغِنى أَسْعى فإنّـــــي رَأَيْتُ الناسَ شَرّهُمُ الفَقيـــــــرُ
وأَبعَدُهم وأَهْوَنُهـــــــــمْ عَلَيْهِمْ وإنْ أَمْسى لهُ حَسَبٌ وَخَيْرُ
وَيُقْصِيـــهِ النَّديُّ وتَزْدَريه حَليلَتُهُ وَيَنْهـــــــــرُهُ الصَّغيرُ
ويُلْفي ذو الغِنى ولهُ جَلالٌ يكـــــــــادُ فُؤادُ صاحِبِهِ يَطيرُ
قَليـــــلٌ ذَنْبُهُ والذنبُ جَـــمٌّ ولكنْ لِلْغِنـــــى رَبٌّ غَفورُ[49]

إن عروة يدرك أن الغنى المادي هو المقياس الحقيقي لقيمة الإنسان في ذلك المجتمع ، لذلك يطلب من زوجته أن تتركه لحال سبيله كي يحصل على المال فالمجتمع كان ينظر إلى الفقير على أنه شر الناس وأضعفهم وأهونهم عليهم فلا خير فيه ويقابل بكل احتقار وازدراء من زوجته ومن الصغار ، أما الغني مهما كان وزنه ينعم بالاحترام والتقدير ويقبل المجتمع كل خطاياه ويغفرها له .

فالشاعر يضيء مواقف داخلية لنماذج اجتماعية في علاقتها مع الفقير وصولاً إلى الموقف الاجتماعي العام منه ، فيؤثر الانفصام منه ، فيؤثر الانفصام الاجتماعي عن الفقير من خلال (شرهم وأبعدهم وأهونهم) والرفض الاجتماعي للفقير (يقصيه النديّ) من خلال نادي القوم ، وهو المجلس الذي يجب أن يتوافر فيه المناخ الحر لجميع الأفراد للتعبير عن حاجاتهم ، وكذلك ازدراء الزوجة له ، وحتى الصغير لا يسلم الفقير من أذاه ، ولا يشفع نسب الفقير ومآثره في دفع هذه المواقف عنه ، وفي هذا دلالة على عدم قيام النسب بديلاً عن الثروة في تكوين موقع اجتماعي مقبول للفقير (وإن أمسى له حسب وخير) ثم يعمد الشاعر إلى تبيان الموقف الاجتماعي من الغني ، وصولاً إلى مقارنة ضمنية بين الموقفين المتناقضين لاختلاف النماذج المقارنة في مستواها المعاشي والاجتماعي ، فالغني يصحبه الجلال والهيبة والوقار ، وتعفى ذنوبه من الحساب وأن كثرت ، ونلمس هنا فقدان العدالة الاجتماعية في تحقيق الوجود الإنساني للفقير .

إذن يمكن القول أن الشاعر استطاع أن يستغل الطاقة الدلالية لهذه المقابلة بين الطرفين ليظهر من خلالها مقدار انحياز المجتمع إلى الطرف الثاني من دون الطرف الأول على الرغم من إن الغني لا يستحق مثل هذه الحفاوة والتقدير وإنما حصل على ذلك بوساطة غناه ، فمكانته إذن مكانة مكتسبة

وليست طبيعية نابعة من محامد أخلاقه ، علماً أن الشاعر لم يستطع أن يخفي سخريته من هذا النوع من التقويم غير المنصف للفقير .

وإذا كان هذا حال الفقير مع زوجته التي هي أقرب الناس إليه فما بال المحبوبة التي مازالت حرة لا يربطها بالرجل رابطة الزواج وليس بينهما ميثاق غليظ وهذا ما عبر عنه (قيس بن الحدادية) كما في قوله :

وما راعني إلا المنادي ألا اظعنوا وإلا الرواغي غدوة والقعاقع
فجئت كأني مستضيف وسائلٍ لأخبرها كل الذي أنا صانع
فقالت تزحزح ما بنا كبر حاجةٍ إليـــــــــــك ولا منا لفقرك راقعُ(50)

ونلحظ من خلال هذه الأبيات إن صورة الانتقاص من الآخر كانت واضحة وهذا ما جسدته المرأة بلفظة تزحزح والتي تضمنت أنها لا تريد أن تربط مصيرها برجل فقير وما الذي يجبرها على ذلك وهي مازالت في حيرة من أمرها ، وبمستطاعها أن تختار الغني الذي يريحها ويكفيها مشقة العيش وسوء الحال . فالصورة الوجدانية التي رسمها الشاعر تعبر عن الأزمة الوجدانية التي يعيشها الفقير مع المرأة ، فالشاعر يعمد إلى إثارة عواطف حبيبته وتحفيز مشاعرها للاستجابة له ، إلا إنه لا يفلح في ذلك لفقدان المال العنصر الأكثر إغراء للمرأة في كسب ودها .وقد استطاع الشاعر أن يستغل الطاقة الدلالية لهذه المقابلة بين الطرفين ليظهر من خلالها مقدار انحياز المجتمع إلى الطرف الثاني دون الطرف الأول على الرغم من أن الغني لا يستحق مثل هذه الحفاوة والتقدير ، وإنما حصل على ذلك بواسطة غناه ، فمكانته إذن مكانة مكتسبة وليست طبيعية نابعة من محامد أخلاقه ، ولا يخفي الشاعر سخريته من هذا النوع من التقويم غير المنصف للفقير .

وفي أبيات أخرى يبدو الفقر وحشاً ينشب أنيابه في نفس (عروة) ويتضح من هذه الأبيات أثر المرأة المباشر في تمرد الجاهلي على واقعه ، فالمرأة بطبيعتها تحب المال وتفضل الرجل الغني ولا يعجبها تقاعس الزوج عن السعي في طلب الرزق ويسوئها بقاؤه مع العيال ، لذلك فهي تواجهه بالحقيقة المرة ، فالمال قد خوى وجفا الأقارب والرجل أمسى منكساً والقعود مع العيال قبيح كما قوله :

قالتْ تماضرُ إذ رأتْ مالي خـــوى وجفـــــا الأقاربُ فالفؤادُ قريـــــحُ
مالـــــي رأيتك فـــي النّدِيَّ منكســـاً وصِباً ، كأنك في النّدِيَّ نطيحُ
خاطرْ بنفسك كي تصيبَ غنيمةً إن القعـــودَ مع العيـــالِ قبيـــحُ

المـالُ فيه مهابـــةٌ وتَجِلّـــةٌ والفقـــرُ فيـــه مذلـــةٌ وخضـــــوع[51]

نلحظ من هذه الأبيات أن الفقر يحط من مكانة الإنسان الاجتماعية واضعاً إياه في الدرك الأسفل ويجلب له العوز والاهانة والذل والانتقاص من قبل الآخرين ، في حين أن الغنى يكسب صاحبه مكانة اجتماعية مرموقة وفاعلة وينتقل به إلى المقامات العليا من المجد والشهرة .فالشاعر يصور حالة الصراع التي تعيشها الأنا بين المخاطرة والقعود مع العيال ، ويؤكد انتهاجه لسلوكية الصعلكة من خلال وصفه للمال بأن فيه (مهابة وتجلة) في حين أن الفقر- مع القعود طبعاً - فيه (مذلة وخضوع) .لقد عبرت هذه الحوارية عن موقف المرأة الإيجابي ودعمها معنوياً له فاتحاً النص بنقل رأيها (قالت تماضر) ليعطي فهماً وصورة واضحة عن طبيعة الحالة المزرية التي يعيشها الشاعر مع أفراد عائلته بعد أن رأت دلالات الفقر واضحة عليه (مالي خوى) ودلالات أخرى تبين أثر حالة الفقر في نفسية الشاعر إذ أدى ذلك إلى انكساره وجرح مشاعره وفؤاده (فالفؤاد قريح) .

ومما أدى إلى تفاقم حالة الحزن والإحباط لديه بعد أن تبين له كيف أن الفقر أنعكس على موقف أقاربه منه ، فقد جفوه وابتعدوا عنه لهذا السبب بالذات أي حالة الفقر التي عصفت به (وجفا الأقارب) الأمر الذي يؤكد هامشية وجوده البشري عندهم وسلبية الموقف الاجتماعي بازدراء الفقير .

كما كشفت لنا المرأة تعجبها واستغرابها من موقفه وتصرفه هذا غير المعهود ، إذ لم ترهُ بهذا الشكل من الضعف النفسي ولا سيما في النادي حيث جلس مريضاً ومنكساً رأسه مشبهةً حاله كحال الذي تعرض لنطح ثور فأدى ذلك إلى ضعفه وانتكاسه وانهيار معنوياته .لكن سرعان ما يتحول حوار المرأة وأسلوبها إلى صياغة تحفز الشاعر إلى المخاطرة والمغامرة تسهم في تفجير الطاقة الحركية في داخله واستنهاض همته ، ورفع معنوياته ، منطلقة من إيمانها المؤكد من أن المغامرة والمخاطرة هي الحل الأمثل من أجل تحقيق الغنى (كي تصيب غنيمة) والتخلص من حالة الفقر ، وبهذا يكون فعل المخاطرة والمغامرة والحركة مفاداً لفعل القعود مع العيال والاستكانة للأمر الواقع .

وعلى هذا الأساس ينطلق (عروة بن الورد) في تصوير العلاقة القائمة بين الفقير والأقرباء والأصدقاء التي لا تمنح الفقير موقفاً اجتماعياً مقبولاً فيها بل هي تسعى إلى نبذه وعزله منفرداً يواجه محنة الجوع والفقر لوحده دون أداء منهم لحقوقه الإنسانية وحقوق صلات القربى والصداقة فيقول :

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفســـــــه شكا الفقر أو لام الصديق فأكثرا

وصار إلى الأدنين كلا وأوشكـــــــت صِلات ذوي القربى له أن تنكرا
وما طالبُ الحاجات من كل وجهةٍ من النـــــــــــاس إلا من أجدَّ وشمرا
فسر في بلاد الله والتمـــــــس الغنى تعش ذا يسارٍ أو تموتَ فتعـــذرا[52]

فالشاعر من خلال معايشته اليومية والتفصيلية لواقع الفقر والفقراء يعبر بصدق تام عن الموقف الاجتماعي الذي يتخذه الاقرباء والاصدقاء ضد الفقير ، فالصديق يتخلى عنه ولا يرعى للصداقة حقوقها ، والقريب يشعر بثقل الفقير وحاجاته عليه ، ونلمس دقة الشاعر في رسم موقف الاقرباء مع الفقير ، من خلال اشارته إلى مستوى القرابة ، فأدنون هم من الدرجة الأولى والثانية كالأخ وأبن العم وذوو القربى ، وفي هذه الإشارة دلالة على ضمور العلاقة الاجتماعية بين الفقير وأقربائه بدرجاتهم المتفاوتة معه في صلة القرابة .ثم يمضي الشاعر إلى دعوة تحريضية للفقير للقيام بنشاط يضمن له معاشه ويدفع عنه الموقف الاجتماعي المتنكر له والمنتقص منه ، ويحصر الشاعر هذا في الجد والسعي وعدم الاستكانة والعجز أمام الفقر ، فبلاد الله واسعة ويمكن أن يجد فيها ما يدفع عنه غائلة العوز والجوع أو أن يموت دون ذلك ويكون عذره في هذا أنه لم يقبل الذل والهوان في علاقته الاجتماعية مع الآخرين.

ومن المفارقات التي وجدناها في شعر الصعاليك أن الصعلوك إذا غضب من زوجته ، لسوء تصرف أو سلوك يذكر من صفاتها ما لا ترغب فيه ، فـ(عروة) يصف زوجته (أم وهب) وهي نائمة متوسدة ذراعيها ولها شخير إذ يقول :

تبيـــــت علـــــى المرافـــــق أم وهْـــــبٍ وقـــــد
نـــــامَ العيـــــونُ لهـــــا كتيـــــتُ[53]

ويتضح من هذا البيت أن (عروة) يشبه شخير زوجته بصوت غليان القدر محاولاً الانتقاص منها ، وهذه صفة للزوجة لا يعرضها غالباً إلا الزوج ، ونادراً ما نجد شاعراً يذكر مثل ذلك في شعره .فالشاعر من خلال معايشته اليومية والتفصيلية لواقع الفقر والفقراء يعبر بصدق تام عن الموقف الاجتماعي الذي يتخذه الاقرباء والأصدقاء ضد الفقير فالصديق يتخلى عنه ولا يرعى للصداقة حقوقها والقريب يشعر بثقل الفقير وحاجاته عليه .ونلمس دقة الشاعر في رسم موقف الاقرباء مع الفقير من خلال إشارته إلى مستوى القرابة فأدنون هم من الدرجة الأولى والثانية كالأخ وأبن العم وذوو القربى وهم من الدرجات الأخرى في صلة القرابة وفي هذه الإشارة دلالة على ضمور العلاقة الاجتماعية بين

الفقير واقربائه بدرجاتهم المتفاوتة معه في صلة القرابة ثم يمضي الشاعر إلى دعوة تحريضية للفقير للقيام بما يضمن له معاشه ويدفع عنه الموقف الاجتماعي المتنكر له .

وفي صورة معاكسة لما سبق ينتقص (الأعلم الهذلي) من أولئك السمان المترفين ضعاف القلوب وهو يرسم في مقطوعة له صورة ساخرة طريفة لنموذج أولئك الذين يجعل منهم اهدافاً لغزواته فهو رجل غني سمين مترف يعيش بين الستائر والحضائر وجهت امرأته إليه برها وعنايتها حتى سمنته فأصبح من صنعها ، ولكنه مع ذلك ضعيف القلب لو أخترق صحراء لفزعته شخوصها ولحسب كل شخص فيها فارساً لأنه خائف من أولئك الصعاليك المتربصة به وبأمثاله في أرجائها الذين إذا رأوه انصبوا عليه كما تنفجر المياه من حوض متهدم يحاول صاحبه إصلاحه دون جدوى وعندئذٍ تضطرب نفسه ، وينهار كيانه ، ويفر هارباً ، ويذهب صنع امرأته فيه سدىكما في قوله :

أيسخط غَزونا رجلٌ سمين تُكِنّنه الستارة والكنيفُ
ولو رَفَّعتَ ثوبك في خروق تَرُوعك في مهالكها الشُّدوف
تخاف لِزام عادية ثَعول كما يتفجر الحوضُ اللقيفُ
إذنْ لذكرت حالك غيرَ عصر وأفسدَ صُنعَها فيك الوجيف[54]

كما أن الطعن في النسب كان وجهاً آخر من أوجه الانتقاص من الآخر في شعر صعاليك العصر الجاهلي ، ويبرز هذا على نحو واضح عند أغلب الشعراء الذين يعانون من عقدة النقص في الانتساب إلى قبائل تتسم بشرف النسب إذ إن ثقافة المجتمع السائدة جعلت منه مجتمعاً لا يرغب بهؤلاء الأبناء الذين ورثوا الإهانة والاحتقار عن امهاتهم وما لصق بهم من وضاعة المنزلة الاجتماعية ، وهذا ما طالعنا به (عروة بن الورد) مبيناً احتقارهم لأحد أبويه ولاسيما الأم كقول (عروة بن الورد) :

أعيرتموني أن أمي تريعة وهل ينجبن في القوم إلا الترائع
وما طالب الاوتار غير أبن حرة طويل نجاد السيف عاري الأشاجع[55]

إن (عروة) تمرد على مجتمعه وقبيلته التي كانت تنظر إليه نظرة تشاؤمية لأن أمه تنتمي لقبيلة أقل شرفاً من قبيلة أبيه (عبس) فأمه ليست من ذوي الانساب حيث أنها عدت بمثابة الأمة[56] .وقال أيضاً :

هم عيروني أنْ أمي غريبة وهل في كريمٍ ماجدٍ ما يُعيرُ
وقد عيروني بالمالَ حين جمعته وقد عيروني الفقر إذ أنا مقترُ

وعيرني قومـــــــي شبابي ولمتـــــــي متى ما يشاء رهط امرئ يتغيرُ[57]

فالشاعر هنا يعرض أسباب (العار أو الانتقاص) الذي وصمه به الآخرون وهو لم يكن إلا ماجداً كريماً فكانت أمه واحداً منها لكونها غريبة عن قومه ولا تتكافئ مع أبيه في شرف النسب الذي يتمتع به وجاء المال والعنصر الاقتصادي الأساس في الثروة بوجهيه المتوافر والمفقود ليشكل سبباً آخر في إلحاق العار به ونلحظ هنا تساوي قيمة النسب غير النقي مع الفقر في استلاب الشرف بالنقيض منه .وحين يجلب الفقر العار للفقير فإن لفظة الفقر تدخل حيز الأخلاق وتحمل معنى اخلاقياً مشيناً ومرفوضاً على نحو كبير وخاصة في المجتمع العربي قبل الإسلام الذي يحتل العار فيه النهاية المأساوية للإنسان ، فالفقر بدلالة الحاجة والعوز لا يمثل عاراً للإنسان بقدر ما يمثل احتياجه لمقومات العيش الأساسية ولكننا نشهد الشاعر هنا يقرر حقيقة عاشها وهو فقير كيف عادَ فقره عليه بالعار ومن هنا أكتسب نقطة الفقر معنى أخلاقياً سلبياً .فـ(عروة) ذلك السيد الذي عرف بكرمه ونبله وزعامته في قومه إلا أن هذا كله لم يشفع له عند قومه حيث ظل هذا يُعير بأمه النهدية التي كانت من الحرائر ، إلا أنها لم تكن من ذوات الانساب الرفيعة لذلك نجد أن هذا الموضوع قد أثر في حياته تأثيراً عظيماً مما جعله ينشأ ناقماً على أبيه أولاً لأنه أختار أمه من قوم ليسوا من أشراف العرب ، وناقماً على أمه وعلى أخواله وعلى المجتمع الظالم .

إن قسوة المجتمع الذي عاش فيه (عروة) جعلته ينقم على أمه وأهلها لذلك نجده يدفع دفعاً إلى هجاء أخواله النهديين الذين ينتمون إلى قبيلة أقل شرفاً وشأناً من عبس ويصرح بهجاء أخواله قائلاً :

ما بي من عارٍ إخـــــــال علمتُه سوى أن أخوالي إذا نسبوا نهد
إذا ما أردت المجد قصر مجدهم فأعيا على أن يقاربني المجـــــدُ
فيا ليتهم لم يضربوا في ضربة وأني عبـــــــدٌ فيهم وأبي عبـــــــدُ[58]

لعل موقف (عروة) من أمه وأخواله كونه من سادات عبس وعبس قبيلة عرف عنها أنها جمرة العرب التي لم تنطفئ وكون أمه من قبيلة أقل شرفاً ومكانة بين القبائل لذلك رأى أن النقص إنما أتاه من أخواله فنقم على هؤلاء الأخوال .

بل إن الأمر ليصل بـــ (حاجز الأزدي) إلى أن يفدى رجليه بأمه وخالته وماذا أفاد من أمه وخالته وهما أفضل وأثمن شيء عنده ، سوى تلك الحياة القاسية المحتقرة التي جرتاها عليه بلونهما الأسود ، أما رجلاه فهما كل شيء في حياته ولولاهما لفقد الحياة نفسها ، وإذا كانت أمه وخالته

سبب ما يلاقيه من انتقاص واحتقار في حياته فإن رجليه سبب إنقاذه مما يلاقيه فيها إذ يقول (حاجز الأزدي) وقد نجا من خشعم :

فدىً لكما رجلي أمي وخالتي بسعيكما بين الصفا والأثائبِ
أوانَ سمِعْتُ القَومَ خَلْفي كأَنهم حريقُ أباءٍ في الرِّياح الثواقب[59]

كما أن بعضهم كانوا يفتخرون بأمهاتهم كونهن لسن من الإماء حيث يجد ذلك نقيصة قد تحط من قدره وتجعله عرضة للنيل منه ، فالشاعر لا يخشى أن يعيره أحد وإنه يبرأ من أن تكون أمه ، وإنه لم يرضع إلا من ثدي حرة شريفة النسب .

كما يمثل هجاء (الأنا) للآخر (القبيلة) مظهراً من مظاهر الانتقاص من الآخر ولاسيما حين يذكر عيوب الآخر (القبيلة) ويجردها من كل مجرد ويلحق بها العار والهوان وهذا ما طالعنا به (الشنفرى الأزدي) في قوله :

اقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وأرحل
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل
لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل[60]

تنطلق أبيات (الشنفرى) من العلاقة الضدية القائمة بين الفرد وقبيلته وانسلاخ الفرد من الإطار الاجتماعي القبلي بسبب عدم توافقه معهم وخروجه عليهم لأن قبيلته (الأزد) لم يأخذوا بثأره عندما قتل أبوه وكان صغيراً ولم يستطع (الشنفرى) حينذاك أخذ الثأر لدم أبيه ولأنه من أغربة العرب الذين سرى أليهم السواد من أمهاتهم الإماء ونتيجة لتنكر القبيلة له داخله شعور بالإحباط وعدم الانتماء والاغتراب والفقدان ، لأن الإنسان بطبعه يحتاج للشعور بأنه ((مقدر ومعترف به وبأنه مستحسن من لدن أعضاء الجماعة التي يعيش معها ، وبدون هذه المشاعر يميل للشعور بالنقص))[61] .وهذا يعني أن عدم وقوف القبيلة بجانب الشاعر أصبح مصدراً للمعاناة ومبرراً للانتقاص من الآخر (القبيلة) من خلال البحث عن بديل آخر يجدد له الانتماء ويحقق ويعيد له شيئاً من التوازن المفقود .إذن موقف القبيلة السالب هذا أصبح مدعاة لتهكم الشاعر وسخريته وقد أدى هذا الموقف المضاد الساخر من قبل الشاعر تجاه القبيلة لأن القبيلة رمز النسق السلطوي الجمعي أخلت بشروط نظرية العقد الاجتماعي فلم تهيء للفرد الشاعر أسباب الحماية على الرغم من انتمائه الفعلي .فمنذ البيت الأول يعلن

الشاعر عن رفضه قبيلته – فإني إلى قومٍ سواكم لأميّل – للأسباب التي ذكرناها – إذ خذلته القبيلة فلم تثأر لأبيه ، مما ولد لديه الإحساس بالنقص وعدم اعتباره فرداً من أفرادها يحتم القانون القبلي الدفاع عنه والثأر لأبيه فارتأى ترك القبيلة والاعتماد على النفس وحدها ، ومن هنا تبدأ رحلة الأنا للبحث عن بديل آخر من خلال الفعل (أقيموا – أميل) فضلاً عن توظيف الشاعر تعابير أخرى تدل على التهيؤ والتحول والبعد والحركة والانفصال .

ويمثل فعل الأمر (أقيموا) بؤرة الحدث الحركي الذي بدأ بها الشاعر أبياته بعد معاناته وإحساسه بالتمزق والتشتت والضياع ، وبهذا ينطلق الشاعر من (عالم القبيلة) الذي هو عالم داخلي مغلق بالنسبة إليه إلى (عالم الطبيعة) عالم خارجي مفتوح ، إلا أن الشاعر يعيش على الرغم من ذلك حالة الانتظار الذي يتأرجح بين الحرية والسكون والذي يجذب الأنا من مركزية الاتصال الكينوني إلى مركزية الوجود الاغترابي[62] .

إذن فالقصيدة تنطلق من بتر العلاقة القائمة بين الفرد واطاره الاجتماعي ، والانسلاخ من هذا الاطار ، ويشكل الفعل (اقيموا) بؤرة النص وانبثاقيته ، وهذه البؤرة تمثل حالة الانشطار في أنا الشاعر والذي يؤكد حالة الانشطار ويعززها هو أن هذا الفعل يمثل الحركة الوحيدة في البيت ، ولكن هذه الحركة ليست لـ (الأنا) بل للآخر ، فـ (الأنا) أصبحت تمثل المركز الطارد للآخر وتحاول خلق الآخر جديد الذي يتلائم معها ويلعب السلوك الأمر دوراً فاعلاً في استهلاك الدلالة المرجوة من الفعل (اقيموا) .ويشكل المنادي (بني أمي) أهمية بالغة في الفعل النفسي ، فهو يريد أن يقول : على الرغم من كونكم بني أمي ((وأضاف الأبناء إلى الأم لأنها أشد شفقة))[63] ، فأني مائل إلى قوم غيركم وربما كان يقصد بالأم هنا (رئيس القوم) لأنه يسمى بذلك لاجتماعهم حوله[64] .

وعبر (الشنفرى) عن بتر علاقته بقومه من خلال الفعل (أقيموا) والفعل (أميل) لكنه كان يعيش على الرغم من ذلك حالة الانشطار في الأنا ، وقد حاول جاهداً في إيجاد الآخر العديل الذي لم يفلح في إيجاده من خلال الرجوع إلى مكتنزات الخيال الشعري ، حيث يستطيع المرء أن يفترض وجود الآخر ، إيجاد غير واقعي كما في قوله:

ولي دونكم أهلون سيد علمس وأرقط زهلول وعرضاءُ جيألُ

وهنا يظهر المجتمع الجديد الذي يقترحه الشاعر ((مدفوعاً بقوة الدافع إلى الانتماء هذا الدافع الأصيل أو المحايث للموجود البشري ، هو الذي يجعل من الإنسان حيواناً اجتماعياً))[65] .ثم يجد

الشاعر البديل المناسب عن قومه عن طريق الانتماء إلى عالم جديد يختلف عن عالمه السابق ويعوض له فقدان هويته الاجتماعية ألا وهو (العالم الحيواني) إذ عبر عن ألفته للحيوانات (الذئب ، النمر ، الضبع) وهذا ما نجده واضحاً في قوله :

ولي دونكـــم أهلون سيدُ علّسٌ وأرقطُ زهلولٌ وعرفـــاءُ جَيْـــألُ
هم الرّهطُ لا مستودعُ السرُّ شائعٌ ولا الجاني بما جرَّ يخذلُ
وكلُّ أبـــي باسلٌ غيـــر أنني إذا عَرَضُتْ دون الطّرائدِ أبسلُ(66)

وبهذا يكون توحد الشاعر بالعالم الحيواني هو حركة مضادة للانفصال عن العالم الإنساني (القبيلة) ويكون فيه للأنا أثر فعال في هذا التوحد وفي بنية الشطر الأول في قوله (ولي دونكم أهلون) من خلال لفظة (لي) التي تدل على امتلاك الأنا للجماعة وتصيب ذاتها فوق الآخرين كما هو واضح في البيت الثالث وما يثبت انتماؤه الجديد قوله (هم الرهط) ثم يضفي على أصحابه الجدد (الحيوانات) صفات تميزهم من قومه – محاولاً الانتقاص من قبيلته – فهم لا يذيعون السر ولا يخذلون الجاني ، ويمتازون بالبسالة والإباء معاً .ومن الملاحظ أن الشاعر حينما يوظف عالم الحيوان يسعى من خلال هذا التوظيف إلى إدانة السلوك الإنساني والنظام الأخلاقي والاجتماعي للقبيلة كونه منافياً لقيم العدل والحرية ، أما التآلف بينه وبين الحيوان فيمكن أن نعزوه إلى السمات المشتركة بينهما وأهمها التمرد والنفور ورفض قيود السلطة أياً كانت .

كما أن الانتقاص من الهيئة البدنية للصعلوك كان حاضراً في أشعارهم ، فقد عمد الشعراء إلى رسم صورة ساخرة لبعض أجزاء مهجويهم البدنية في محاولة للانتقاص منهم ، وهذا ما عكسته لنا نظرة المرأة الجاهلية إلى الصعلوك فيما يخص اللون والشكل فهي ليست نظرتها لوحدها بل هي نظرة المجتمع وجذورها قوية آتية من أن هؤلاء أبناء إماء وفي هذا دلالة سيمائية قوية كما في قول (السليك بن السلكة) :

هزئت امامة أن رأت بـــي رقةً وفاً به فقـــم وجلدٌ أســـودُ
اعطي إذا النفس الشعاع تطلعت مالي واطعن والفرائص ترعدُ(67)

فالسليك يحاول تسفيه رأي المرأة التي هزئت من رقة حاله بسبب فقره وكثرة غزواته ، ومن سواد لونه، ولاشك في أن سواد لونه أثراً ملموساً في تصعلكه ، إذ أنه ما فتئ يشكو من المهانة التي لحقته جراء وجود هذا النقص الذي تشكله (عقدة اللون) هذه العقدة التي كانت إلى حد ما - كما يقول الدكتور

عبده بدوي ((وراء التحول في القصيدة العربية من ضمير الجمع إلى ضمير المفرد ، وكانت وراء اقتراب الشاعر من ذاته بعد أن كانت القبيلة هي ذاته))[68].

كما أن المرأة من وجهة نظر الثقافة الرجولية لا تحسن سوى السخرية على ما هو ظاهر محسوس من الكيفيات لاسيما جسد الرجل ، وأن هذه السخرية تفجر نقمته على هيأته التي لا يفرح بها إذ يتمنى أن يكون بكامل اناقته ووسامته ، وإذ لا يصل إلى ما يريد فإنه يحاول تزويق الوجه الآخر الذي يملكه .

فالرقة التي لفتت نظر المرأة هي دقة البدن وهزاله فهي مؤشر على ضعف القابليات الجسمية لاسيما في الناحية التي تتعلق بحياة الرجل والمرأة ، ثم ينتقل بالإدراك النسوي إلى ناحية أخرى ، إلى فمه ، وفم الرجل أول منزل من منازل الاتصال بالأنثى ثم ينتقل بالإدراك الأنثوي إلى مرتبة ثالثة حيث لون الأدمة وما تحمله من بياض أو سواد وليس بالضرورة أن تخضع الاجساد لتماثل لوني ، وبنية اللون البشري هاهنا قائمة على التضاد ففي الحين الذي تكون فيه بشرة المرأة بيضاء تكون فيه أدمة الرجل سوداء ، وإن كان الرجل يستلمح ويستحسن هذا التضاد اللوني إذ يمثل ضرباً من ضروب البحث عن النقيض فإن المرأة تبحث عن الشبيه الذي يوازن صفاء ونقاء وبياض بشرتها فهي تؤمن باجتماع المتشابهات وهي تعتمد الحسية لاسيما حاسة البصر في تقدير الأمور .وبهذا فإن نظرة المرأة كانت مرآة عاكسة لموقف المجتمع الجاهلي من طبقة العبيد ، فالسواد في نظر النسق الجمعي يندرج في رتبة العار والمثلبة وبذلك يصبح النسق الجمعي والمثلبة محكوماً بثقافة الشكل لا الجوهر ، ويتحول الفرد الأسود في بنية هذا المجتمع إلى فرد سالب ومنبوذ .ولكن هذا الانتماء لا يعدو كونه إرواءً لحاجة ناقصة أو غير متوفرة في المجال الإنساني ، ولذلك يلح الشاعر على أنه يمتلك جماعة (لب) وهذا الامتلاك يلجئه إلى تنصيب ذاته فوق الآخرين .

وهنا (تأبط شراً) يرد على (أم مالك) التي استنكرت مظهره حين رأته أشعث أغبرا وقد كان يوماً من الأيام براق المفارق مشرق الجبين دليل المخالفة كما في قوله :

لقد عجب الفتيان من أم مالكٍ تقول أراك اليوم أشعث أغبرا

تبوعاً لآثـــــــار السرية بعدما رأيتك براق المفـــــــــارق أيسرا[69]

ففي هذين البيتين تلمس علو الصوت الأنثوي وتناسق نغمته في البيتين لاتخاذ موقف سالب أو لتقديم رؤية ناقدة للمذكر ، بعد أن أصبح شيخاً كبيراً بدليل لفظة (أشعث ، أغبرا) .

لقد قابلت (أم مالك) الشاعر بالصدود إذ يكشف صوتها/قولها رؤية يقينية سالبة لمنظر الشيب والفقر بعد أن كان (أيسرا) أي ميسور الحال .

ومن هنا فالشاعر يجسد خلاصة التجربة الذكورية في رؤيتها لاتحاد الشيب (الزمن) والمرأة ضده كما أنه حاذقاً بأدوار النساء ومراوغتهن إذ إنهن يقطعن الرجل ويبتعدن عنه إذا ما شاب رأسه أو قل ماله .وبهذا يشكل المال والشباب عاملين فاعلين في ديمومة الوصل عند النساء حسب رؤية الشاعر وبذلك تتسم صورة المرأة في حالة الشيب بالتغير والبحث عن البديل .

أو ملاقاته السخرية من الآخرين لهيأته ونحوله كقول (عروة بن الورد) :

أتهزأ أن سمنت وأنت ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهدُ
أقسم جسمي في جسومٍ كثيرةٍ وأحسوا قراح المـاء والماءُ بـــــاردُ[70]

وما كل هذا الاستحقار للآخر إلا من أجل الإقرار بدونية الآخر والحط من منزلته .

ويعرض لنا تأبط شراً الصعلوك الفقير سلوك المرأة معه التي تبدو رافضة له أحياناً وساخرة منه إذ يقول:

تقـــــــول سليمى لجارتهـــــا أرى ثابتاً يفنا حوقلا
لها الويل ما وجدت ثابتاً ألف اليدين ولا زملا[71]

حيث يشكو من سخرية المرأة منه لأنه فقير واشاعتها هذه السخرية بين جاراتها من خلال وصفها له على أنه شيخ كبير عاجز لا يطيق أعباء الحياة مثلما لا يستطيع أن يؤدي الدور المطلوب معها وهو يعدها الويل لأنه ليس جباناً ولا ضعيفاً .

وسخر (السليك بن السلكة) من قوم حبيبته الذين حذرته منهم إذ يقول :

تحذرني أن أحذر العام خثعماً وقد علمت أني امرؤٌ غيـــــــر مُسْلَمَ
ومـا خَثْعَمٌ إلا لِئـــــامٌ أدقَّةٌ إلى الذُّلِ والإسْخافِ تَنْمَي وتنتمي[72]

فالشاعر وقد حرّكه نزوعٌ ورغبة جنسية مقموعة يحاول إقناع نفسه أولاً وإقناع المرأة بعد ذلك بأنه لا يأبه بصولة قومها (غيـــرمُسْلَمَ) ولأنهم (لئامٌ أدقَّةٌ) ينتمون إلى الذل والإسخاف ، وتشكل لحظة التَّمتُّع بالمرأة تفريغاً لرغبة مكبوتة في نفس الشاعر ، وكأنّه كان يحسُّ بوجود نقصٍ في قوته ، لأن الجاهلي عندما يواجه مشكلة الفناء وقوة الزمن التدميرية يلجأ إلى أثبات قوته الجسدية في مواجهة الأقران من جهة والتمتع بالمرأة من جهة أخرى .

ومن مظاهر الانتقاص من الآخر أيضاً هو الانتقاص من بعض العادات والمعتقدات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي ومنها أن بعض المناطق تصيب زائريها بلعنات مختلفة ومنها (خيبر) ، وإن هذه التعاويذ لا تطرد إلا عن طريق الرقى والتعاويذ ، أو القيام بعمل ما كالحبو والنهيق ، وهذا ما نلحظه في ذكر (عروة بن الورد) لعادة جاهلية معروفة ألا وهي (التعشير) والتي كان يلجأ إليها الإنسان ((إذا أراد دخول قرية تخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعَشَّر كما ينهق الحمار ثم دخلها ولم يصبه الوباء))[73] حيث يقول:

وقالو أحبُ وانهقْ لا تضيرك خيبرٌ وذلك من دينِ اليهود وَلُوعُ
لَعَمْرِي لَئِنْ عَشّرْتُ من خَشيَةَ الرّدى نُهاقَ الحميرِ إنني لجَزوعُ[74]

وبذلك فإن (عروة بن الورد) ينتقد ذلك المعتقد وينتقص من معتقديه .

ومن المعتقدات الأخرى التي سخّر منها الصعاليك ما كان في جانب الفال والطيرة والإذعان لهذا المعتقد كما في قول (حاجز بن عوف) :

ولما أنْ بدت اعـــلام ترج وقال الرائبـــــات بدت رتوم
واعرضت الجبال السَّودُ خلقي وخينفُ عن شمالي والبهيمُ[75]

أو كقول السليك:

فبات له اهل خـــــــــــــلاء فناؤهم ومرت بهم طير فلم يتعيفوا[76]

أو ما يعتقده العرب في الرقى والتمائم وما فيها من قوى سحرية كقوله:

ومعترك كأن القـــــوم فيهـــــم تبل وجـــــوه أوجههم بحيم
صليـــــت بحـــره وتجنبتـــــــــهُ رجـــــال لا يناط بها التميم[77]

وهكذا نجد أن الصعاليك قد خرقوا المنظومة الثقافية العامة بمنظومة ثقافية خاصة ، تتجلى في رفض بعض المعتقدات الشائعة في المجتمع العربي والسخرية منها .

ومما يمكن أن ينضوي تحت هذا المبحث أيضاً سخرية (الأعلم الهذلي) من ثياب الرهبان عندما شبهها بجلود جراء الضباع السود إذ يقول:

سُـــــــــــــودٍ سحاليلٍ كـــــــــــــأن
جلودهـــــــــــــن ثيابُ راهـــــــــــــبْ[78]

فتشبيه (الأعلم) ثياب الرهبان بجلود الضباع جاء من باب السخرية والانتقاص من الرهبان ، لأن سخرية كهذه ليست غريبة على هؤلاء الصعاليك المتمردين على كثير من تقاليد مجتمعهم .

وبناءً على ما تقدم نجد أن صور الانتقاص من الآخر قد تنوعت وذلك بسبب الثقافات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي عموماً ، وثقافة الصعاليك تجاه الآخر خصوصاً كالانتقاص من (مهنة الرعي ، الصعلوك ، الخامل ، الفقير ، السبية) وغيرها من مظاهر الانتقاص في نصوصهم الشعرية .

المبحث الثاني الانتقاص من الذات

إن الحديث عن ذاتية الصعاليك شيء آخر ، فهي ذاتية حية متحركة وذاتية واقعية معقولة في آن واحد ، فالصعلوك يجعل نفسه في شعره دائماً صلب الحديث ، وكل ما يصفه أو يتحدث عنه مشدود إلى شخصه بخيوط واضحة وعلاقته بكل ما يتحدث عنه واضحة كل الوضوح .وعندما نتتبع موضوعات شعرهم وأغراضه نجد كل هذه الموضوعات والأغراض مشدودة إلى اشخاصهم ومرتبطة بها ، فهم مثلاً حينما يتحدثون عن الفقر أو الجوع لا يتحدثون عنه من الزاوية العامة أو من جهة الحكمة والفلسفة ، وإنما يتحدثون عن ما تركه الفقر والجوع من آثار في اجسامهم الأمر الذي جعلهم ينتقصون من ذواتهم[79] . لذا جاءت أشعارهم تحمل طابع المذكرات الشخصية ، ومن الطبيعي أن تكون مذكرات أي شخص عن نفسه ذاتية ، وأن نحس بشخصيته في كل ما يتحدث عنه في هذه المذكرات التي دون كل منهم فيها خواطره الواقعية في نطاق حياته ومعيشته .

وحين نعود إلى حديثنا عن ظروفهم وبيئتهم نجدها تتلخص في أنهم كانوا فقراء فقراً أثر في اجسامهم مما جعلها موضع سخرية واستهزاء وانتقاص من قبلهم وهذا ما طالعنا به (السُليك بن السلكة) بقوله :

وما نِلتُها حتى تصعلكتُ حِقبةً وكنتُ لأسبـــــــــــــابِ المنيَّةِ أُعرَفُ
حتى رأيت الجوع بالصيف ضرني إذا قمت تغشاني ضلال فأسدف[80]

ف (السُليك) في هذا البيت ينتقص من ذاته مبيناً أنه حتى في الصيف الذي تكثر فيه ألبان البادية وخيراتها يبلغ منه الجوع أحياناً أن يأخذه الدوار والاغماء حين يقف فتظلم عيناه حتى يكاد يشرف على الموت والهلاك .فتصوير الشاعر للدوار الذي يصيبه عند القيام يعطينا دلالة على ضعف جسمه وهزاله من أثر الجوع وهو يعترف بضرره عليه وبخاصة عند اشتداد الحر.ويمكن أن نبين معنى

الأذى في لفظه الجوع من خلال إشارة الشاعر إلى مظهر الأذى المتمثل في الدوار وفقدان التوازن الذي يصيبه في أثناء القيام ، وهو ما يعرف اليوم في المجال الطبي بـ (الضعف العام أو فقر الدم) .

ويرسم (تأبط شراً) في بعض شعره صورة لجسمه دقيقة كل الدقة صورة الشخص الذي لا يُبقي من الزاد إلا ما يتعلل به حتى لقد نشزت أضلاعه والتصق معاه قائلاً :

قَلِيلُ ادخارِ الزادِ إلا تَعِلَّةً وقد نشز الشّرْسوفُ والتصَقَ المِعا[81]

ومن خلال ذلك البيت نجد شدة الجوع قد أثرت في جسم تأبط شراً حتى أصبح بوسع المرء أن يحصي عظام صدره فضلاً عن التصاق أمعاءه الخاوية وهذا ما قاله عن نفسه محاولاً الانتقاص منها وجعلها موضع السخرية والاستهزاء .

وفي الاتجاه ذاته يصف (الشنفرى) جسمه حين ينام بأنه لا يبلغ الأرض لأن عظامه وفقار ظهره البارزة تحول بينه وبين الأرض وإنه حين يتوسد ذراعه إنما يتوسد عظامه الجافة كأنها قطع حديد لا أثر فيها للحم كما في قوله :

وآلفُ وجه الأرض عند افتراشها بأَهـدأَ تُنبِيهِسناســنُ قُمَّــــــلُ

وأعدِل منحُوضاً كـــــــأن فصوصه كعابٌ دَحاها لاعِبٌ فهي مُثَّلُ[82]

كما تحدث (تأبط شراً) في مواضع أخرى كثيرة عن السبب الحقيقي لهذا النحول وهو الجوع الشديد المضني الذي كان يتعرض له دائماً كما سبق فيقول :

وما بعد أن قد هدني الدهر هدة تضال لها جسمي ورق لها عظمي

وما قد أصاب العظم من مخامر من الــداء داء مستكن على كلــــــم[83]

فـ (تأبط شراً) يسخر من جسمه بأنه ليس فيه إلا هيكل من العظم الضخم ولا يحمل لحماً ولذلك كانت بقية جسمه في نحول وضآلة .

كما يصور (الأعلم الهذلي) فقره في صورة بدوية ساذجة ولكنها طريفة في قوله :

زعمــت خنــــاز بــــأن بُرمُتنا تغلي بلحـم غيـر ذي شحـــم[84]

ويحرص الصعاليك العداؤون على تسجيل ظاهرة طريفة في حديثهم عن العدو ، وهي حركة ثيابهم عند عدوهم ، وما يفعلونه أو تفعله الرياح بها وهي ظاهرة تستمد طرافتها من صدقها وبساطتها وواقعيتها وإن أكثر ما يذكرون ثيابهم يذكرون أنها بالية ممزقة وهذا ما طالعنا به (أبو خراش) فثوبه الخلق البالي يهتز في أثناء عدوه كأنه ينتفض من حمى تلازمه إذ يقول :

فعدَّيتُ شيئاً والدَّريس كأنما يُزعزعُه وِردٌ من المُوم مُرْدِمُ[85]

وفي قصيدة أخرى يصف جماعة من العدائين وقد ألقوا ثيابهم عنهم من شدة عدوهم :

وعاديةٍ تُلقي الثياب وَزَعتها كَرِجل الجراد ينتحي شرف الحزم[86]

إن ثياب الصعلوك لم تكن لتخلق نظامها الخاص من خلال تناسقها مع القطع اللباسية الأخرى بل من خلال اتسامها بطابع خاص يتجسد هذا في كونها ، أسلاب قتلى ، وهي في معظمها القميص والسروال والنعل وهي خرق ممزقة تحمل خصائص حاملها وتومئ إلى سبب صعلكته .

إذن فالباس الذي ترتديه فئة الصعاليك ((يُعدّ لغة على مستوى التواصل اللباسي وكلاماً على مستوى التواصل اللفظي))[87]، فاللباس يمكن إدراجه ضمن الانساق الدلالية الاجتماعية الذي يمط ثقافة الإنسان الحامل لها ويؤكد هويته الاجتماعية والنفسية حينما يتظافر مع الحامل (الجسد) .

ويتحدث (تأبط شراً) عن مطاردة (حاجز الأزدي) واصحابه له ويصفهم بأنهم قد ألقوا عن اجسادهم ثيابهم البالية وشمروا عن سيقانهم ليسهل عليهم ادراكه :

فتعتعت حِضْني حاجز وصحابه وقد نبذو خلْقَانهم وتشنعوا[88]

كما يصف (صخر الغي) صاحباً له بأنه يعدو فيرفع باطن ركبتيه ثوبه الخلق :

ترى عدوه صُبحَ إقوائه إذا رفع المأبضان الحَشيفا

كعدو أقبَّ رَباع ترى بقائله ونساه نسوفاً[89]

وبناء على ما تقدم يكون الصعلوك رث الثياب لأنه دائم السفر والتنقل بين مجاهل الصحراء ليس لديه وقت للاهتمام بمظهره الخارجي مما يجعله محل انتقاص من قبل نفسه أو من الآخرين .

ومما يتصل بهذا حديثهم عن نعالهم ، ووصفها بأنها بالية ممزقة لكثرة يسرهم وعدوهم ، يتحدث تأبط شراً عن صعوده إلى المرقبة بنعل بالية ممزقة قد شدها بسيور بعد أن جعل تحتها نعلاً أخرى إذ يقول :

بثرثة خلق يُوقي البنان بها شَددتُ فيها سريحاً بعد إطراق[90]

إذ أن الجبال التي يتسلق صخورها كـ (تأبط شراً) ليصل إلى مكمنه الذي يزاول منه صعلكته تحتاج إلى نعل متينة تقي قدميه وأصابعهما من تمزيق الصخور ولكنه لا يملك إلا نعلاً بالغة الرثاثة والتمزق .

ويشبه (أبو خراش الهذلي) تمزق نعله بهيكل عظمي لطائر بعد أن يؤكل لحمه ففي نعله من الخروق والتمزق مثل ما بين الأضلاع والعظام والاجنحة ويقول إنه حين يضطر إلى السير بنعله هذه في الندى والمطر والوحل فقد يفضل نبذها والسير على قدميه لأنهما لم تعودا صالحتين للاستعمال لتمزقهما الشديد بقوله :

ونعل كأشلاء السماني تركتها على جنب مَوْر كالنَّحيزة أغبرا[91]

وهي صورة نجدها عند (أبي خراش) أيضاً :

ونعل كأشلاء السماني تركتها خلاف ندى من آخر الليل أورهْمُ[92]

وعن النعل أيضاً نرى (الشنفرى) يقول مرة إنه أحياناً يضطر إلى الحفاء لا يجد نعلاً :

فأما تريني كابنة الرمل ضاحياً على رقة أحفى ولا أتنعل[93]

ومرة يصف تمزق نعله فيقول إنني أسعى لا أملك شيئاً إلا نعلين تمزق حدارهما لم أستطع حتى خصفهما ، وملحفة بالية وملاءة خلقة قصيرة إذا شددتهما على جسمي من جانب تعرى الجانب الآخر فيقول :

قليل جهازي غير نعلين أسحقت صدورهما مخصورة لا تخصف

وملحفة درس وجرد ملاءة إذا أنجمت من جانب لا تكفف[94]

ويستغل الشعراء الصعاليك السماني استغلالاً طريفاً فهم يشبهون بأشلائها نعالهم الممزقة ، وهي طرافة تأتي من تلك المفارقة الغريبة بين طرفي التشبيه :

ونعل كأشلاء السماني تركتها على جنب مَوْر كالنَّحيزة أغبرا

ونعل كأشلاء السماني نبذتها خلاف ندى من آخر الليل أورهمُ[95]

ويرسم (السليك) صورة إنسانية مؤثرة لما تلاقيه خالاته الإماء السود من الضيم والهوان وهو عاجز لفقره عن أن يفعل من أجلهن شيئاً حتى يشيب رأسه مما يقاسيه نفسياً إذ يقول :

أشابَ الرأسَ أني كل يوم أرى لي خالةً وسط الرحال

يشق علي أن يلقين ضيماً ويعجز عن تخلصهن مالي[96]

فـ(السليك) في هذين البيتين لا يقصد خالاته القريبات فقط شقيقات أمه بالذات وإنما يقصد بهن عامة الجنس ، فهو يصور فيهما هوان الجنس الأسود الذي تنتمي إليه خالاته ويقول (المبرد) ((إنما توجع لخالاته لأنهن كن إماء))[97] .فهذه الصورة الإنسانية المؤثرة التي يرسمها الشاعر لخالاته

الإماء السود ومنزلتهن الاجتماعية المتدنية تنطق بالشكوى من الفقر حيث لا يملك الشاعر مالاً لخلاصهن فهو عاجز عن النهوض بأعبائهن ، وقد أثر ذلك في نفسه مما جعله يبدو شيخاً مسناً ، فالشيب أول مظاهر العجز عند الشاعر (أشاب الرأس) حيث يحمل الشيب دلالة العجز والضعف فضلاً عن دلالة كبر السن ، ويبدو الشيب هنا معنوياً وليس مادياً بدلالة اقترانه بالمشهد اليومي للنسوة الفقيرات وهن اسيرات مع الرحال الذي غنمه الأعداء إذ لا أحد يشفق عليهن ويسعى إلى خلاصهن من الضيم وتكرار هذا المشهد اليومي في مأساة الشاعر ينمي إحساسه بالعجز والمظهر الآخر لعجز الشاعر هو عدم امتلاكه المال الذي يدفع به شقاء الفقر عن هؤلاء النسوة ، الأمر الذي دفعه أن ينتقص من نفسه ، كما أن صورة الشاعر الحزينة هذه تمتلك إيحاء يتمثل في الاهمال الاجتماعي للفقير وعدم رعايته والعطف عليه .

وينتقص (عروة بن الورد) من نفسه بسبب الفقر الذي دفعه إلى مجابهة المخاطر أن يطرح نفسه كل مطرح إذ يقول :

ومَنْيكُ مِثْلِي ذا عِيالٍ ومُقْتِراً مِنَ المالِ يطرح نَفْسَهُ كلَّ مَطْرَحِ[98]

فمن الطبيعي أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن تلك السياط النفسية التي يصبها الفقر على نفوسهم ففي شعر (عروة بن الورد) أحاديث طويلة عن هوان منزلة الصعاليك الاجتماعية ومقامهم خلف أدبار البيوت ، وسوء منظرهم في هذا المقام الذليل وعن تلك الغضاضة التي يراها عليهم وكيف يتوارون من الناس ، فلا يقيمون إلا حيث لا يراهم أحد ، وعن ضيق أقاربهم بهم حتى ليوشكوا أن ينكروا قرابتهم لهم إذ يقول :

رأيــت بني لبنى عليهم غضاضة بيوتهم وســط الحلـــــول التكلف
ذريني أطـــــوف في البلاد لعلنــي أخليك أو أغنيك عن سوء محضر
فإن فـاز سهمٌ للمنيـــة لم أكـــن جزوعـــــاً وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعدِ لكـم خلف ادبـار البيوت ومنظر[99]

وفي قصيدته البائية المشهورة يرسم صورة إنسانية مؤثرة له ، وقد ذكر أهله الفقراء في صحرائه المجدبة وحاجة أولاده الصغار الشعث الذين خلفهم وراءه في العراء ولا سيء لهم سوى تلك الذلة والمهانة التي تبدو عليهم كلما نظروا لمحاً إلى أقاربهم في انتظار شيء يجودون به عليهم إذ يقول :

وذكـرت أهلـــــي بالعـــــراء وحاجـــــة الشعـــــث التوالـــــب

المصرميـــن مـــــن التـــلاد اللامحيـــن إلـــــى الأقـــارب[100]

فالصورة تقوم على عجز الشاعر (أهلي بالعراء) حيث لا مأوى يوفره لأهله ويبرز من بين الأهل (الشعث التوالب) الأطفال الصغار ليعمقوا أثر الحزن لدى الشاعر فهم بحاجة أكثر من غيرهم إلى الرعاية المعاشية والاهتمام الأبوي ، ويكون الانكسار المحيط بأهله (اللامحين إلى الأقارب) معبراً عن درجة خضوعهم للآخرين ومثيراً للشفقة والعطف عليهم ، وعلى الرغم من الوصف الواقعي والمباشر الذي قامت عليه الصورة فإنها تبعث الأسى والحزن في نفس المتلقي لهؤلاء الفقراء .

ويرسم (الشنفرى) أيضاً صورة من صور الانتقاص من الذات من خلال ما يعانيه من الجوع والحرمان القاسيين وطيه أمعاءه على جوع شديد ، وعيشه على القوت الزهيد إذ يقول :

وأَطوي على الخُمْص الحوايا كما انْطَوَتْ خيوطَـــــةُ مـــــاري تُغـــــارُ وتُفْتَلُ

وأَغْـــدوا على القـــوتِ الزهيدِ كما غـــدا أزلُّ تهـاداه التَّنائِـــفُ أَطْحَـلُ[101]

ويصف (تأبط شراً) جسمه بأنه ليس فيه إلا هيكل من العظم الضخم في صدره ولكنه عظم لا يحمل لحماً ، ولذلك كانت بقية جسمه في نحول وضآلة فيقول حين حاصره أعداءه من بني لحيان الهذليين ، فاحتال للنجاة منهم بصبه عسلاً على الصخور وانزلاقه بعيداً عنهم إذ يقول :

وأخرى أصادي النفس عنها وإنها لَمَوردُ حزمٍ إن فَعَلْتُ وَمَصْدَرُ

فَرَشْتُ لها صدري فَزَلَّ عن الصَّفا به جُؤجؤٌ عَبْلٌ وَمتْنٌ مُخَصَّرُ[102]

ويسخر (الشنفرى) من نفسه بعد قضاءه ليلة على مرقبه متربصاً ، مُحدباً على ذراعيه مبالغة في تخفيه كما ينطوي الأفعوان المتكسر ولا شيء معه سوى نعلين باليتين ، وثياب أخلاق :

فَبِـــــتُ على حدّ الذراعين محدباً كما يتطوى الأرقشُ المتقصف

قليلٌ جهازي غير نعلين أسحَقَتْ صدورُها مخصـــــورةً لا تُخصفُ

وَملحفـــــــة دِرْس وجـــرْد ملاءة إذا أنجمتْ من جانب لا تكفَّفُ[103]

ومن مظاهر الانتقاص من الذات أيضاً قلب الاعراف السلطوية كما في قول (الشنفرى) :

إذا أَصْبَحَـــتُ بين جبـال قوٍّ وبيْضَـانِ القُـــرَى لم تَحْذَريني

فإمّـا أن تِوَدّينـــا فَنَرْعَـــــى أَمَانَتكُـمْ وأمّـا أن تخونـــــــــي

سأَخْلِـي للظعينـــةِ مِـــا أرادَتْ ولسْـتُ بحارسٍ لك كُـــلَّ حيـــنِ

إذا مـا جِئْتِ ما أنهـاكِ عنه فلم أُنكِـــــــرْ عليـــــــكِ فطلّقينـــــــــــي
فأَنْـتِ البَعْلُ يومئـــذٍ فقومي بسوطـــك لا أبـــــــا لكِ فاضربيني (104)

فهذه الأبيات تكشف لنا قلب الاعراف السلطوية في العائلة ، فالسلطة العائلية تكون عادة في قبضة الرجل صاحب الكلمة الفصل في كل الأمور ، وعلى المرأة الزوج أن تحترم السلطة الذكورية وألا ترتكب ما يخالف أوامره .

وفي حالة خرق أوامر السلطة فإن الحال ستنقلب وتكون السلطة الأنثوية هي المهيمنة في العائلة وتتجسد هذه الهيمنة من خلال مفردتين هي (البعل والسوط) فالأولى تحيل على الزوج أو الرب وربما تجسد كل هذه المفردات الوظائفية ، أما الكلمة الأخرى السوط فهي رمز القوى والسيطرة بل الاستبداد احياناً ، وهي حكر على الرجل دون المرأة فإذا ما استعملها فقد امتلكت ناحية السلطة ، ولذلك نجد (الشنفرى) ينتقص من ذاته من خلال بعض الالفاظ التي وردت والتي نقل من خلالها السلطة إلى المرأة من حيث يشعر أو لا يشعر من خلال دلالة الالفاظ (فطلقيني ، فأنت البعل ، فاضربيني) .ومن خلال ما تقدم نرى أن الانتقاص كان واضحاً في نصوصهم الشعرية عازين حياة الصعاليك إلى ما أصابهم من فقر وإلى طبيعة حياة الصعاليك القائمة على التشرد والانتقال من مكان إلى آخر ، الأمر الذي جعل ثيابهم واجسادهم موضع انتقاص وسخرية .

الهوامش

(1) كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، 65 ، وينظر القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، 1643 .
(2) لسان العرب ، لأبن منظور ، 339 ، وينظر مختار الصحاح 384 .
(3) المعجم الوسيط ، 946-947 .
(4) يُنظر : الذات والآخر لدى شاعر ثورة الجزائر ، لخضر تيبت ، (بحث) ، مجلة المعرفة ، وزارة الثقافة ، سوريا-دمشق ، ع 523 ، 2007م ، 296 .
(5) يُنظر : جدلية الأنا - الآخر ، نجيب الجصاوي ، 7 .
(6) يُنظر : مفهوم الذات بين النظرية والتطبيق ، قحطان أحمد الظاهر ، 15 .
(7) صورة الآخر (صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي) 813 .
(8) صورة الآخر (البعد الجغرافي وصورة الآخر ، مصطفى عمر التير) ، 419 .

(9) يُنظر : صورة الآخر (صورة الذات وصورة الآخر) ، 812 .
(10) يُنظر : صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه الطاهر لبيب ، 38 .
(11) صورة الآخر (في مسألة الآخرية) الطاهر لبيب ، 22 .
(12) يُنظر : الذات والآخر ، تأملات معاصرة في العقل والسياسة ، والواقع ، محمد شوقي الزين ، 10.
(13) يُنظر : دور الآخر في الابداع الجمالي ، وليد منير ، (بحث) مجلة فصول ، مج 10 ، ع(1-2) الهيئة المصرية العامة للكتاب
- القاهرة 1991م ، 106 .
(14) صورة الآخر (صورة الآخر المختلفة فكرياً) ، 11 .
([15]) يُنظر : صورة الآخر في شعر المتنبي ، 24 .
([16]) تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط ، 160 .
([17]) م . ن ، 20 .
([18])ينظر: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، الدكتور يوسف خليف ، دار المعارف - مصر ، 1959 ، 234-235 .
([19]) ديوان الصعاليك ، شرح : د. يوسف شكري فرحات ، 83 .
([20])السيلك بن السُلكة ، حميد آدم ثويني ، 61-62 .
([21]) ينظر: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، 267
([22]) م . ن ، 267 .
([23]) شعر الشنفرى الأزدي ، د. علي ناصر غالب ، 34 .
([24]) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، 188 .
([25]) ديوان الصعاليك ، 145- 146 .
([26]) ينظر: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، 34 .
([27]) م . ن ، 35 .
([28]) ينظر : مدخل إلى الأدب الجاهلي ، إحسان سركيس ، 197 .
([29]) ديوان ، تأبط شراً وأخباره ، جمع وتحقيق وشرح : علي ذو الفقار شاكر ، 112- 114 .
([30]) م . ن ، 112 .
([31]) م . ن ، 112 .
([32])الصورة الفنية في شعر الصعاليك قبل الإسلام ، عبد الجبار حسن علي الزبيدي ، 166 .

(33) الحضارة والشخصية ، د. قيس النوري ، 70 .
(34) ينظر: الأغاني ، 350/20 ، والتبريزي 24/2 .
(35) ديوان الصعاليك،53 .
(36) الحضارة والشخصية ، 65 .
(37) ينظر: التبريزي ، 96/4 .
(38) ينظر: شعر الصعاليك في العصر الجاهلي ، دراسة سيمائية ، زينب خليل حسين ، 136 .
(39) ديوان السليك ، 74 .
(40) ينظر: المرأة في شعر الصعاليك ، 165 .
(41) ديوان عروة بن الورد ، شرح اسماء أبو بكر ، 47 .
(42) الاغاني ، ج140/4-141 .
(43) م . ن ، ج3/ 215 .
(44) شعر مالك بن حريم ، في موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي ، 43 .
(45) ديوان تأبط شراً ، 196 .
(46) ديوان عروة ، 76 .
(47) شعر الصعاليك في العصر الجاهلي ، يوسف خليف ، 248 .
(48) ديوان عروة بن الورد ، 47 .
(49) ديوان الصعاليك،93 .
(50) الاغاني ، 149/14 .
(51) ديوان الصعاليك،97 .
(52) م . ن ، 91-92 .
(53) ديوان الصعاليك،61 .
(54) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، 237 .
(55) ديوان الصعاليك،99 .
(56) ينظر: الاغاني ، جزء 88/3 .
(57) ديوان الصعاليك،87 .
(58) م . ن ، 69 .
(59) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، 43-44 .

([60]) شعر الشنفرى الأزدي ، 66-67 .
([61]) الشخصية السلمية ، سيدني ، 114 .
([62]) ينظر: الكينونة في شعر الصعاليك والخوارج ، علي كاظم علي المدني ، 83 .
([63]) الخزانة 341/3.
([64]) ينظر: جمهرة اللغة 60/1 .
([65]) مقالات في الشعر الجاهلي ، 62 .
([66]) شعر الشنفرى الأزدي ، 67-68 .
([67]) السليك بن السلكة ، أخباره وشعره ، 50 .
([68]) الشعراء السود ، 226.
([69]) ديوان تأبطشراً، تحقيق سلمان داود القرغولي وجبار تعبان ،93 .
([70]) ديوان الصعاليك،73 .
([71]) ديوان تأبط شراً ، 21 .
([72]) الأغاني ، 399/20 .
([73]) الحيوان 359/6 .
([74]) ديوان عروة بن الورد ، 65 .
([75]) قصائد جاهلية نادرة ، 72
([76]) ديوان السليك ، 60 .
([77]) م . ن ، 74 .
([78]) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، 299 .
([79]) ينظر: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، د. عبدالحليم حفني ، 376-377 .
([80]) السليك بن السلكة ، 60 .
([81]) ديوان الصعاليك،139 .
([82]) م . ن ، 45 .
([83]) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، 194 .
([84]) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، 230 .
([85]) م . ن ، 223 .
([86]) م . ن ، 223 .

([87]) معرفة الآخر ، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة ، د. عبدالله ابراهيم وآخرون ، 46 .
([88])الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، 223 .
([89]) م . ن ، 223 .
([90]) م . ن ، 224 .
([91]) م . ن ، 224 .
([92]) م . ن ، 224 .
([93])ديوان الصعاليك،46 .
([94])شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، 187 .
([95])الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، 224 .
([96]) م . ن ، 234 .
([97]) الكامل للمبرد ، 118/2 .
([98])ديوان الصعاليك،65 .
([99])الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، 233-234 .
([100]) م . ن ، 28 ، 29 .
([101])ديوان الصعاليك،42 .
([102]) م . ن ، 130
([103])الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، 186 .
([104])ديوان الصعاليك،54 .